رسالة

أبي الربيع محمد بن الليث

إلى

قسطنطين ملك الروم

شرح وتعليق

اسعد لطفى حسن

« قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة »
« سواء بيننا وبينكم . ألا نعبد إلا »
« الله . ولا نشرك به شيئا . ولا »
« يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون »
« الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا »
« بأنا مسلمون » . قرآن كريم

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م / ٧٠١

رسالة

أبي الربيع محمد بن الليث

إلى

قسطنطين ملك الروم

شرح وتعليق

أسعد لطفي حسن

« قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة »
« سواء بيننا وبينكم . ألا نعبد إلا »
« الله . ولا نشرك به شيئا . ولا »
« يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون »
« الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا »
« بأنا مسلمون » . قرآن كريم

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م / ٧٠١

هى الرسالة التى بعث بها
الخليفة العباسى هرون الرشيد

كلمة الشارح

بسم الله الرحمن الرحيم

إلهى . أستلهمك العفو والرضى . وأسألك المعونة والتوفيق وأحمدك وأثنى عليك جل جلالك . وعظم شأنك . إلهى لوجهك الكريم أعمالى . وللحصول على عفوك . والوصول إلى باب رحمتك أسأل . فهبنى من لدنك رحمة وهيّئ لى من أمرى رشدا .

وصلّ على من كان للحق داعيا . وللإيمان بوحدانيتك مناديا . الذى أرسلته للخلق كافة . وبعثت به للناس عامة . سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وكل الأنبياء والمرسلين أجمعين

اللهم وقد جعلتَ فى رسالة نبيك سيدنا محمد بن عبد الله النبىّ العربى الهاشمى الدعوة للإسلام وهو الدين القيم ، وقد خاطبته فى كتابك الكريم :

(قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى

وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ . وَبِذٰلِكَ أُمِرْتُ . وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)

فقام صلى الله عليه وسلم بما كلفته به . وقد أمرته بما جاء فى كلامك القديم :

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ . وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ . وَاللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ . إِنَّ اللّٰهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

وقد تحدثت عن ذاتك القدسية :

(هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)

فأدى الرسالة، ووفى الأمانة . وشهدت له جلّ جلالك قبل رفعه إلى الرفيق الأعلا ، وقد رضيت عنه ومن دخل فى دينك الحنيف :

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً)

وقد ظهر الإسلام فغير وجه الأرض وبدل العقائد، وجعل من عبادة الأوثان عباد الرحمن . ومن المشركين بالله مؤمنين

بوحدانيته . ومن الجاحدين بوجوده خاضعين لجبروته . خاشعين لهيبته . ومن قساة القلوب رحماء . ومن الفجّار أبرارا . ومن الأشرار أخيارا . ثم انتشر نوره فعم الخافقين . ودخل الناس فى دين الله أفواجا . وما قاتل أهله إلا من قاتلهم . وما نازعوا إلا من اعتدى عليهم أو حاربهم ، ثم رفع عامه مناديا :

(لَا إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ . فَمَنْ يَكْفُرْ بِٱلطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِٱللهِ . فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا ٱنْفِصَامَ لَهَا)

ثم توالت الأيام . وكرت الأعوام . وهو بالحق يُظهر سلطانه وباليقين يُكثر أعوانه ، فيأمر بالمعروف وينهى عن الفحشاء والمنكر ، ويدعو بالحسنى :

(ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ)

وبهذا السبيل القويم بلغ غايته ، ووصل إلى المجد ، وما شيده لأهله من فخار ، غير أن لين القول وحسن الجدل ، قد أطمع أعداءه فيه ، وجعلهم يترصدون له الوقيعة ، ويحكمون خططهم لمهاجمته ويدبرون حيلهم لمقاومته ، فاستهووا ضعاف

القلوب واستمالوهم إليهم وبذلوا كل جهودهم فى إغوائهم (فَنَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

ومن المحزن أَنْ كان تراخى العلماء، وانصرافهم إلى الدنيا، فتشجع الطامعون، وعموا عن أن للدين ربّا يحميه، ولو ضعف المسلمون بعد قوة، واستكانوا بعد همة، وخنعوا بعد مجد، وانكمشوا بعد عز وعظمة، وأصبحوا فى موقف لا يُحسدون عليه، ولا يُحمدون على وقوفهم فيه.

ألاسلام وهو دين الفطرة لاحاجة له إلى الدعوة بالقوة أو الحيلة، إذ لا صلة فيه بين العبد والمعبود إلا العمل بالأوامر، والابتعاد عن المنهيات، ولا وسيلة إلى الاستمالة اليه إلا بتدبر روحانيته والإقرار بوحدانية الله جلّ وعلا وهو القائل وهو أصدق القائلين:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) وهذا هوناموسه العام:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً. وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا. رَبُّكُمْ أَعْلَمُ

بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا . وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا . إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا . وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا . وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا . إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا . وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا . وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا . وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا . وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا . وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا . وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ

كُلُّ أُولٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً . وَلاَ تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً . كُلُّ ذٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً . ذٰلِكَ مِمَّا أَوْحٰى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّٰهِ إِلٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا . أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا . وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا . قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا)

وهذا ما كان من قيام النبى صلى الله عليه وسلم بتبشيره للناس مجملا كما جاء فى القرآن:

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللّٰهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ

إلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) وهذه دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم كما وردت فى الحديث النبوى الشريف عن عبادة بن الصامت قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئاً ، وَلاَ تَسْرِقُوا ، وَلاَ تَزْنُوا ، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ ، وَلاَ تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ وَلاَ تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ . فَمَنْ وَفَّى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ . وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً ثُمَّ سَتَرَهُ اللهُ فَهُوَ إِلَى اللهِ ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ »

وقد مضت القرون وتلك القواعد الصحيحة والمبادئ الثابتة لم تتغير ، وكتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لا تحريف فيه ولا تبديل ، وسنة الرسول الأمين وشريعته

الطاهرة قائمة وان أهمل المسلمون وعصوا ربهم وانحرفوا عن الصراط المستقيم . فكان من وراء أعمالهم وبسبب ضعفهم وإهمالهم أن طغى فريق من رجال الأديان الأخرى ونزحوا إلى بلاد الاسلام يدعون إلى دياناتهم ، وبذلوا كل مرتخص وغال ، من رجال وأموال مما لايلامون على نشاطهم لولا انحرافهم عن الصراط القويم ، إذ تعرضوا للإسلام بالمطاعن والمثالب . فلم يتركوا كلمة من الشتائم إلا أتوا بها . وتغالوا فى صوغ الكلم المنحرف ونعقوه بالادّعاآت والأباطيل .

(كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا) ، (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤا نُورَ اللّٰهِ بِأَفْوَاهِهِمْ، وَيَأْبَى اللّٰهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدٰى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

ولم يكن العلماء والفقهاء ورجال الدين من أهل السلف الصالح ليقفوا مكتوفى الأيدى ، أو جامدى الحركة ، بل كانت غيرتهم على الدين تحفزهم إلى الدفاع عنه ، والدعوة إليه بصحيح الأسانيد وقوىّ الحجج ، والكلم الطيّب ، والبرهان الواضح

فى أدب جمّ ، وتواضع عميق ، وجهاد فى الحق متواصل ، ونضال فى نصرة الدين على أهل الباطل .

ولما كان العصر العباسى وفى عهد خليفة المسلمين هارون الرشيد وعصره حافل بالمفاخر فقد رغب فى إرسال دعوته إلى مملكة الروم ، وكان عاهلها قسطنطين يعتز بجبروته وقوّة سلطانه فى قومه ، ويسيطر بنفوذه على أبناء مملكته ، لهذا كلف الرشيد كبير علماء زمانه ، وأبلغ فصحاء أوانه . الحجة البالغة . والثقة الكاملة فى أصول الدين أبى الربيع محمد بن الليث لإعداد رسالة يبعث بها إلى ذلك الطاغية الجبار . وقد وفقه الله بفضل قوّة يقينه ، وحسن اخلاصه ، ووضع رسالته التى زينت بها جيد مؤلفى « كتاب الاسلام »

ولما رأيت أن حركة التبشير والمبشرين فى المملكة المصرية على الأخص ، وفى بلاد الشرق على وجه أعم ، قد تطورت واندلع لهيبها . واشتد أوارها ، واستفحل خطبها ، ورسالة ابن الليث أبلغ ما كتب لمحاجة المعتدين على الدين ، وإقناعهم بالحجة البالغه والبرهان السديد المتين ، وفيها بلاغ للناس ، وهداية للضالين المضللين ، فتوجهت للتفكير فى نشرها منفردة فى ثوبها القشيب ، وتقدمت بالرجاء إلى حضرة صاحب الفضيلة

شيخ الأزهر الشريف ، وكبير علماء المسلمين ، والحجة القائمة في الدين مولانا الشيخ محمد مصطفى المراغى بكتابى الذى أنشره بعد ، ليتفضل أحسن الله جزاءه وأجزل عطاءه بمقدمة لتلك الرسالة القيمة ، حتى إذا ما أقدمت على طبعها ، تكون موشاة بدرر حكمه ، محلاة بلآلئ غزير علمه ، وقد جاد ـ حفظه الله ، وكافأه على جميل صنعه بفضله جل وعلا ورضاه ، وتفضل بكتابه الذى أنشره فخورا ، وأسأل الله أن يجعل عملى مقبولا مشكورا .

اللهم أفض من فيض رحمتك على عبادك المسلمين وأجمع كلمتهم على الحق المبين ، وأبعد عنهم نزغات الشيطان ، ووفقهم إلى مايرضيك يارب العالمين ، اللهم أيد بنصرك العاملين من ولاتهم على رفع شأن دينهم ، وسدد خطى مليكنا المحبوب ، خادم الاسلام ، والغيور على كرامته الملك « فاروق الأول » .

وأعد فى عصره الميمون عهد الفاروق ابن الخطاب ، وألهمه الحكمة والسداد والصواب انك أنت السميع العليم ، ووفقنا جميعا لما يكسبنا عفوك ورحمتك ورضاك آمين .

أسعد لطفى حسن

كتاب الشارح

إلى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر

شيخ الجامع الأزهر

مولاى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر الشريف .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد فانى أحمد الله وأثنى على رسله وأنبيائه ، وأصلى وأسلم على خاتم النبيين . سيدنا محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين . وأتقدم إلى سيدى ومولاى ، إذ عصانى القلم ، وجف المداد ، وانكمش القرطاس ، مذ حاولت تسطير مقدمة لرسالة قدوة المحققين ، وأبلغ المرشدين ، وامام العاملين وحجة المسلمين ، أبى الربيع محمد بن الليث التى بعث بها خليفة المسلمين هرون الرشيد . إلى قسطنطين ملك الروم .

تلك الخريدة الفريدة ، والجوهرة الغالية القيمة الوحيدة ، التى لا يليق بأصدافى أن توضع بجوار لآلئها ، ولا بعباراتى أن تعرض بين جواهرها ولا عبادتى الفقيرة الضئيلة أن تذكر بجانب عباراتها القوية الثمينة ، وحججها الثابتة المتينة ، وإذ كانت هذه التحفة النادرة للدين دعاية ، وللضالين والمضللين

هداية ، وفضيلة مولاى شيخ العاملين ، وكبير جماعة الدّفاع عن الدين ، وأقوى المحاجين بقوّة الايمان وصدق اليقين . لإحباط مساعى المفسدين ، وابطال أعمال المبشرين . فها أنا وقفت ببابكم ، وسعيت إلى جنابكم ، لتتولوا الأمر ، وأنتم صنو الكاتب ، ورب القلم ، وحجة المسلمين ، وفضلكم وعلمكم أشهر من نار على علم ، أدعوكم باسم الله الرحمن الرحيم ، أن تتولوا ديباجة هذه الرسالة القوية ، والدعاية العظيمة ، وقد طغى المبشرون ولا من يردعهم ، وتغلغلوا فى الأوساط ولا من يمنعهم ، ولولا أن للدين ربّا يحميه ، ويحفظه من خصومه ومهاجميه ، لتمكنوا من غواية ضعاف النفوس والبسطاء ، وقد أمعنوا فى محاولاتهم وحملاتهم الهوجاء ، فتقبل رجائى وقد أخلصت النية لله ، لا أبغى إلا مرضاته ، وها أنا تقدمت للدفاع عن الدين مستعينا بأقوى حماته ، وأستاذ العاملين لرفعة شأنه وأكبر دعاته ولمثل هذا فليعمل العاملون (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ)

والسلام عليكم ورحمة الله ؟ المخلص

٢٤ / ٢ / ١٩٣٦ اسعد لطفى حسن

كتاب صاحب الفضيلة شيخ الجامع الأزهر الشريف

حضرة الأستاذ أسعد لطفى حسن .

السلام عليكم ورحمة الله .

وبعد فقد اطلعت على كتابك «الاسلام» وأعجبت بجهودك وكتبت لك الكلمة المرافقة ، وأسأل الله لك التوفيق ؟

٢١ يونيو ١٩٣٦ م شيخ الجامع الأزهر

محمد مصطفى المراغى

كلمة

حضرة صاحب الفضيلة شيخ الاسلام والأزهر الشريف

اطلعت على كتاب الإسلام الذى ألفه حضرة الأستاذ أسعد لطفى حسن فوجدته كتابا يوضح مناحى الدين ويأخذ بحظ وافر من الأخلاق ويضرب بسهم غير منزور من الأدب والاجتماع بعبارة سهلة وأسلوب يشوق النفس تتشربه الأفهام وتشتهيه الأنفس الطيبة وقد أورد فيه من النصوص القرآنية ما فيه بلاغ لقوم يعقلون .

وبعد أن أتى على ما أراد من هذه النواحى أورد رسالة من إنشاء أبى الربيع محمد بن الليث كتبها عن الخليفة الخامس هارون الرشيد إلى قسطنطين ملك الروم لعهده يدعوه وقومه فيها إلى الإسلام ، وهى فى أسلوبها وجزالة ألفاظها ، وحسن تنسيقها ومسحة تأليفها تشبه ما كان يتعاطاه فحول الكتاب فى ذلك العهد كسهل بن هارون وتلميذه الجاحظ فهى وما كتب فى مشاورة المهدى لأهل بيته كأنما يمتحَّان من قليب واحد إذ منشئهما واحد ، استهلها بحمد الله بمحامده والثناء بآلائه. ثم انتقل إلى بيان ما يحمل من أمانة وجوب تبليغ الدين والإعذار إلى من لم تبلغه دعوة الاســــلام وأنه يريد أن يحط عنه ثقل الأمانة بتبليغه الإسلام على الوجه الذى يدعو إلى النظر، اقتداء برسول الله وامتثالا لأمر الله ورجاء أن يكون ممن قصد بقوله تعالى (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللّٰهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ، وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ) .

ثم أخذ يجول فى ميادين الدعوة ويتنقل من برهان على التوحيد إلى برهان آخر ، ومن حجة إلى حجة باسطا ذلك كل البسط بالأدلة القوية المتينة ، ثم تصدى لتوحيد الذات الالهية

و بُعدها من التركيب وتعرض للعقيدة النصرانية بالأدلة العقلية ، وأتى من ذلك على ما شاء وما امتد به نفس القلم ، وكان من أواخر ما ورد فى هذه الرسالة قوله :

وكتاب أمير المؤمنين نذيره بين يدى جنوده ومقدمه ان شاء الله من جيوشه إلا أن تؤدى الجزية التى دعاك أمير المؤمنين اليها ، وحداك ومَن قبلك عليها ، رحمة للضعفاء الذين لا ترحمهم وتوجعا المساكين مما لا تتوجع منه لهم ، من الجلاء والسباء والقتل والأسر والقهر وقساوة من قلوبكم وأثرة لأنفسكم واعتصاما بخواصكم وإجلاء لعوامكم الضعفاء الفقراء المساكين لا تمنعونهم بقوّة ولا تدفعون عنهم بحيلة ولا تراقبون فى الرحمة لهم والتعطف عليهم أَدب المسيح إياكم وقوله فى الكتاب لكم (طُوبَى لِلَّذِينَ يَرْحَمُونَ النَّاسَ فَإِنَّ أُولٰئِكَ أَصْفِيَاءُ اللّٰهِ وَنُورُ بَنِى آدَمَ)

أسأل الله تعالى أَن ينفع بهذا الكتاب سامعه وقارئه ، وأن يهدى به ويثيب مؤلفه ، انه سميع الدعاء ؟

شيخ الجامع الأزهر

رسالة

الحجة البالغة أبى الربيع محمد بن الليث التى بعث بها الخليفة العباسى هارون الرشيد إلى قسطنطين ملك الروم



« من عبد الله هارونَ أميرِ المؤمنين إلى قسطنطينَ عظيم الروم . سلامٌ على من اتبع الهدى ، فإنى أحمد الله الذى لاشريك معه ، ولا ولد له ، ولا إلهَ غيرُه ، الذى تعالى عن شبه المحدودين بعظمته ، واحتجب دون المخلوقين بعزته ، فليست الأبصار بمدْركة له ، ولا الأوهام بواقعةٍ عليه ، انفراداً عن الأشياء أن يُشبهها ، وتعالياً أن يشبهه شىء منها ، وهو الواحد القهار ، الذى ارتفع عن مَبالغ صفات القائلين ، ومذاهب لغات العالمين ، وفِكَرِ الملائكة المقرَّبين ، فليس كمثله شىء ، وله كلُّ شىء وهو على كلِّ شىء قدير .

أما بعد ، فإن الله جل ثناؤه وتباركت أسماؤه ، قال لنبيه صلى الله عليه وسلم فيما أنزل من آيات الوحى اليه « أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » فرأى أميرُ المؤمنين من أحسنِ قوله وأفضلِ فعله ، أن يكون إلى سبيل ربه داعياً ، وبرسوله صلى الله عليه وسلم متأسِّياً ، ولقوله « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » موافقا ، وكنتَ من كُتبِ الله المنزلة، وآياته المفسَّرة، خَلقه الكثير بحيث رجا أميرُ المؤمنين استماعَك لموعظته ، وانتفاعَك بمجادلته انتفاعَ بشرٍ كثيرٍ ، وخَلْق عظيم قد بُؤْتَ بأوزارهم مع وزرِك ، واحتملت من آثامهم إلى إثمك ، فأحَبَّ أن يدعوك ومَنْ رجا أن ينتفع بدعوته معك «إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ» فإن توليتم عن ذلك رغبةً عنه ، أو تركتموه زهادة فيه ، فاشهدوا بأنا مسلمون، واستمعوا ما أميرُ المؤمنين واصفٌ لكم ، ومحتج به

إن شاء الله عليكم ، بقلوب شاهدة ، وآذانٍ واعية ، ثم اتبعوا أحسنَ ما تستمعون . ولا قوة إلا بالله .

فإن الله عزّ وجلّ يقول فيما أنزل من كتابه واقتصّ على عباده « فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ » إن الله تبارك اسمُه ، وتعالى جَدُّه ، وَصَفَ فيما أنزل من آياته . وشَرح من بيِّناته ، الأُمَمَ الماضية ، والقُرُونَ الخالية ، والمللَ المتفرقة ، الذين يجعلون مع الله آلهةً أُخرَى لا بُرْهانَ لهم بها ، ولا حجة لهم فيها فقال « يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ »

قالت العربُ الذين يعبدون الملائكةَ ، وأهلُ الكتاب الذين

يقولون ثالثُ ثلاثة: بأيّتما آيةٍ يا محمدُ تزعم أن الله إلٰه واحد؟ فأنزل الله عزَّ وجلّ فى ذلك آيةً تشهدُ لها العقول ، وتُؤمنُ بها القلوبُ ، وتعرفُها الألبابُ ، فلا تستطيعُ لها ردًّا ، ولا تُطيقُ لها جَحْداً ، ذكَر فيها اتصالَ خَلْقِه واتفاقَ صُنْعِه ، ليُوقِنَ الجاهلون من العرب ، والضالون من أهل الكتاب ، أن إلٰه السماء والأرض وما بينهما من الهواء والخَلْق ، واحدٌ لاشريكَ له ، خالقٌ لاشىء معه ، فقال « إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ » فتفكَّرْ فى تفسير هذه الآيةِ من كلام الرَّب عزّ وجلّ، وما أوضح فيها مِن بيان الخَلْق ، فإنه مامنْ مُفَكِّرٍ ينظرِ فيما ذكر الله فيها ممـا بين السماء والأرض ، إلا رأى من اتصال بعض ذلك ببعض ، مثل ما رأى فى تدبيره نفسه ، وعَرف من اتصالِ خَلْقِه ، فيما بينَ ذَوَائبِ شئونِ رأسِه إلى أطراف أنامل قَدَمه ، وفى ذلك أوضَحُ آية وأبينُ دلالة ، على أن الذى خلقَه وصنَعه إلٰه واحد لا إلٰه معه ، ولا من شىء ابتدعه أولا على مثال صَنعَه .

قد ترون بعيونكم وتعلمون بعقولكم ، أن الله عزّ وجلّ خلق للأنام الأرض ، وجعلها موصولةً بالخَلْق فليس يَدْخُوها إلّا لَهُمْ ، ولا يُدْعُها إلا معهم ، وجعل ذلك الخلقَ متصلا بالنَّبْت ، لايقوم إلا به ، ولا يصلُح إلا عليه .
وجعل ذلك النبتَ الذى جعله متاعًا لكم وَمَعَاشاً لأنعامكم ، متصلا بالماء الذى ينزل من السماء بقَدر معلوم، لمعاش مقسوم، فليس ينجُم النبتُ إلا به . ولا يَحْيا إلا عنه . وجعل السحابَ الذى يبسُطه كيف يشاء ، متصلا بالريح المسخَّرة فى جوّ السماء، تثيره من حيث لا تعلمون ، وتسوقه وأنتم تنظرون ، كما قال عزّ وجلّ « وَٱللَّهُ ٱلَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ » ووصلَ الرياح التى يصرِّفها فى جوّ السماء بما يؤثِّرُ فى خَلْق الهواء من الأزمنة التى لا تثبُت الهوَاجرُ إلا بثباتها ، ولا يزول عنه بَرْدٌ إلا بزوالها ، ولولا ذلك لظلَّ راكداً بالحرِّ المُميت ، أو مائلا بالبرد القاتل . ووصل الأزمنة التى جعلها متصرفة متلونة بمسير الشمس والقمر، الدائبين لكم ، المختلفين بالليل والنهار عليكم ، وجعل مسيرهما الذى لا تعرفون عددَ

السنينَ إلا به، ولا مواقعَ الحساب إلا من قِبَله، متصلاً بدَوران الفَلَك الذى فيه يَسْبَحان، وبه يأفُلان. ووصل مسيرَ الفَلَك بالسماء للناظرين سواء، فهذا خَلْقُ الله عزّ وجلّ، ما فيه تبايُنٌ ولا تزايُلٌ ولا تفاوُت، كما قال سبحانه وتعالى «مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ» ولو كان لله شَريكٌ، أو معه ظَهير عليه، يُمْسِك منه ما يُرْسِل، ويُرْسِل منه ما يُمْسِك، أو يؤخِّر شيئا من ذلك عن وقت زمانه، أو يعجِّله قبل مَجىء إبَّانه، لتفاوتَ الخَلْقُ، ولتبايَن الصُّنع، ولفسدت السمواتُ والأرض، ولذهب كل إله بما خَلَق، كما قال عزّوجلّ - وكذَّب المبطلين - «بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ»

والعجَبُ!! كيف يَصفُ مخلوقٌ ربَّه، أو يجعل معه إلٰهاً غيرَه، وهو يرى فيما ذكر اللهُ من هذه الأشياء صنعةً ظاهرة، وحكمةً بالغة، وتأليفاً متفقا، وتدبيراً متصلا، من السماء والأرض لا يقوم بعضه إلا ببعض، متُجَلِّيًا بين يديه، ماثلاً نُصْبَ عينيه، يناديه إلى صانعه، ويدلُّه على خالقه، ويشهد له على وَحْدانيته

ويهديه إلى رُبُوبيّته «فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ» حقًّا ما كرَّر هؤلاء الجاهلون بربهم، الضالُّون عن أنفسهم، فى خلق الله النظر، ولا رجَّعوا - كما قال الله عزّ وجلّ - الفِكر، ولو أعملوا فكْرَهم وأجهدوا نظرَهم ، فيما تسمع آذانُهم وترى أبصارُهم ، من حوادث حالات الخَلق ، وعجائب طبقات الصُّنع ، لوجدوا فى أقرب ما يروْن بأعينهم ، من التأليف لتركيب خلقهم ، والأثر فى التدبير بصُنْعهم ، ما يدلّهم على توحيد ربهم ، ويقف بهم على انفراده بخلقهم . فإنهم يرون فى أنفسهم بأعينهم ويجدون بقلوبهم ، أنها مخلوقة صَنْعةً بعد صنعة ، ومُحَوَّلةٌ طبقةً عن طبقةٍ ، ومنقولةٌ حالاً إلى حال، سُلاَلَةً من طين، ثم نُطْفَةً مِنْ مَاءٍ مَهِين، ثم علقة ، ثم مُضْغَة ، ثم عَظْما ، كساه الله عزّ وجلّ لَحْما ، ونَفخ فيه رُوحًا ، فإذا هو خَلْقٌ آخر، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ، الذى خلق فى قَرَارٍ مَكِينٍ من ماء قليلٍ ضعيفٍ ذليلٍ ، خَلْقاً صوَّره بتخطيط ، وقدَّره بتركيب ، وألّفه بأجزاءٍ متفقة ، وأعضاءٍ متصلة ، من قَدَمٍ إلى ساق إلى فخذ إلى ما فوقَ ذلك من مفَاصل ما يُعْلن أو

عجائب ما يُبْطن . ليعلم الجاهلون ويُوقن الجاحدون أن الذى صنع ذلك وخلقه ودبّره وقدّره وهيأ ظاهرَه وباطنه ، إلهٌ واحد لا شريك معه . فلا يَذْهبنّ ذكرُ هذا صفحًا عنكم ، ولا تسقُطُ حكمتُه جهلاً به عليكم ، وفكّروا فى آيات الرسل وبيّنات النُّذُر ، فإن فى ذلك فكراً للمُبْصرين ، وبَصَرًا للمعتبرين ، وذكرى للعابدين ، والحمد لله رب العالمين .

وأميرُ المؤمنين واصفٌ لكم ، ومقتصٌّ من ذلك ـ إن شاء الله ـ عليكم ما فيه شهادات واضحات ، وعلامات بيّنات ، ومبتدئٌ بذكر آيات نبينا صلى الله عليه وسلم ، فيما أنزل الله منها فى الوَحْى إليه ، فانه ما أحدٌ يقرَع بآيات النبوة قلبَه ، ويحصّن ببيّنات الهدى عقلَه ، إلا قادتْه حتى يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لا يجد إلى إنكار ماجاء به من الحق سبيلا . فأردتُ أن تكونوا على علم ومعرفة ويقين وثقة من أمر محمد صلى الله عليه وسلم وحقه ، وما أُنزل اليه من ربّه عزّ وجلّ . فأحْضِرْ كتابَ أميرالمؤمنين فَهْمَك ، وألْقِ إلى ماهو واصفٌ ـ إن شاء الله ـ سمعَك

إن الله عزّ وجلّ اصطفى الإسلام لنفسه ، واختار له رُسُلا

من خلقه، وابتعث كلَّ رسول بلسان قومه، ليبيّن لهم ما يتّبعُون ويعلّمهم ما يجهلون ، من توحيد الرب وشرائع الحق « لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيماً » فلم تزلْ رسلُ الله قائمةً بأمره متواليةً على حقّه ، فى مَوَاضى الدُّهور ، وخَوَالى القُرون ، وطبقات الزّمان ، يصدّق آخرُهم بنبوّة أوّلهم ، ويصدّق أوّلهم قولَ آخرهم . ومَفَاتحُ دعوتهم واحدةٌ لا تختلف ، ومَجَامعُ ملّتهم ملتئمة لا تفترق ، حتى تناهت الولايةُ والوراثة التى بَنَى عيسى عليه السلام عليها وبشَّر بها ، إلى النبيِّ الأُمّىّ الذى انتخبه الله لِوَحْيه ، واختاره بعلمه ، فلم يزلْ ينقلُه بالآباء الأخاير ، والأمّهات الطَّوَاهر ، أمّةً فأمّةً ، وقَرْنا فقرنا ، حتى استخرجه الله فى خير أوان ، وأفضل زمان ، من أثبتِ مَحَاتد أُرُوماتِ البريّة أصلا ، وأعْلى ذوائب نَبعاتِ العربِ فَرْعا ، وأطْيبِ مَنَابتِ أعْياص قُرَيش مَغْرِساً ، وأرفعِ ذُرَى مجد بنى هاشم سَمْكا ، محمد صلى الله عليه وسلَّم ، خيرها عند الله وخلقِه نَفْسًا ، على حينَ أوْحشتِ الأرضُ من أهل الإسلام والإيمان ، وامتلأت الآفاقُ من عَبَدةِ الأصنام

والأوثان ، واشتعلت البِدَعُ فى الدين ، وأطْبقت الظُّلَم على الناس أجمعين، وصار الحق رَسْمًا عَافيا، خَلَقا بَالِيًا، ميتا وسط أموات، ما إن يُحِسُّون للهدى صوتا يسمعونه ، ولا للدين أثرا يتَّبعونه، فلم يزل صلى الله عليه وسلم قائما بأمر الله الذى أُنزل إليه، يدعوهم إلى توحيد الرب عزّ وجلّ ، ويُحَذِّرهم عقوبات الشِّرْك ، ويجادلُهم بنور البرهان ، وآيات القرآن ، وعلامات الإسلام ، صابراً على الأذى محتملا للمكروه ، وقد ألهمه الله عزّ وجلّ أنه مُظهِرُ دينِه ، وَمُعِزُّ تمكينه ، وعاصِمُه ومستخلفُه فى الأرض ، فليس يَثْنيه رَيْب ، ولا يلْوِيه هَيْب ، ولا يَعْنِيه أذى ؛ حتى إذا قهرت البيِّناتُ ألبابَهم ، وبَهرت الآياتُ أبصارَهم ، وخصَم نورُ الحقّ حُجَّتَهم، فلم تمتنع القلوب من المعرفةِ بدون صِدْقِه، ولم تجد العقول سبيلا إلى دفعِ حقِّه ، وهم على ذلك مكذِّبون بأفواههم ، وجاحدون بأقوالهم ، كما قال الله عزّ وجلّ، العَليمُ بما يُسِرُّون ، الخابر بما يُعْلِنُون « فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّٰهِ يَجْحَدُونَ » بَغْيًا وعداوة ، وحَسَدًا ولَجَاجة ، افترض الله عليه قتالَهم ، وأمره أن يُجَرِّد السيفَ لهم ، وهم فى عِصَابة

يَسِيرة ، وعِدَّة قليلة مستضعَفين مستذَلين، يخافون أن يتخطّفهم العربُ وتَدَاعَى عليهم الأممُ، وتَسْتَحْملهم الحروبُ. فآواهم فى كَنَفه وأيَّدهم بنصره ، وأنذرهم بمقدمة من الرُّعْب ، ومشغلة من الحق وجنودٍ من الملائكة ، حتى هَزم كثيرا من المشركين بقلَّتهم ، وغلَب قُوَّةَ الجنود بضعفهم إنجازاً لوعده ، وتصديقاً لقوله : ـ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ ـ فأحْسِن النَّظَر وقلِّب الفكر فى حالات النبى صلى الله عليه وسلم من الوَحْى قائما لله ، لتجدَ لمذاهب فكرك وتصاريف نظرك مضطربًا واسعا ، ومعتَمداً نافعا ، وشُعوبا جمَّة ، كلّها خيرٌ يدعوك إلى نفسه ، وبيانٌ ينكشف لك عن مَحْضه ، وأخْبِرْ أميرَ المؤمنين ما كنتَ قائلا لولم تكن البعثة للنبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ بَلَغَتْك ، ولم تكن الأنباء بأموره تقرَّرتْ قِبلَكَ ، ثم قامت الحجةُ بالاجتماع عنـــــدك ، وقالت الجماعة المختلفة لك : انه نَجَم بين ظَهْرانى مثل هـــذه الضلالات المستأصلة ، والجماعات المستأسدة ، التى ذكر أمير المؤمنين من قبائل العرب . وجماهير الأمم وصَنَاديد الملوك ، ناجمٌ قد نصَب لهـا وغَرى بها يجهِّل

أحلامَها ، ويكفِّر أسلافَها ، ويفرِّق أُلاَّفها ، ويلعن آباءها ويضلل أديانَها ، وينادى بشهاب الحق بينَها ، ويجهرُ بكلمة الإخلاص إلى من تراخَى عنها ، حتى حَميت العرب ، وأنفت العجمُ ، وغضبت الملوكُ ، وهو على حال ندائه بالحق ودعائه اليه وحيداً فريداً ، لا يَحْفل بهم غَضَبا ، ولا يرْهَب عَنتاً ، يقول الله عزّ وجلّ : — يٰأَيُّهَا الرَّسُولُ بلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ — أَكنتَ تقولُ فيما تجرى الأقاويلُ به وتقع الآراء عليه إلاَّ أنه أحدُ رجلين :

إما كاذبٌ يجهلُ ما يفعل ويَعْمَى عمّا يقول ، وقد دعا الحتفَ إلى نفسه ، وأذنَ اللهُ لقومه فى قتله ، فليست الأيامْ عادَة ، ولا الحالُ بثابتة له إلاَّ رَيْثما تَستلحمُه أسبابُهم، ويَنْهضُ به حلماؤهم غضباً لربِّهم، وأنفةً لدينهم، وحميةً لأصنامهم، وحسداً من عند أنفسهم .

وإما صادقٌ بصيرٌ بموضع قدمه ومَرْمَى نَبْله ، قد تكفل الله عزّ وجلّ بحفْظه وصَحبه بعزّه ، وجعله فى حِرْزِه وعصَمه من الخَلْق ، فليست الوحشةُ بواصلةٍ مع صحبة الله إليه ،

ولا الهيبةُ بداخلة مع عصمة الله عليه، ولاسيوفُ الأعداء بمأذون لها فيه. ثم إن آيتكم يا أهلَ الكتاب لو قيل لكم إن الرجل الذى يدَّعى العِصْمة وينتحل المَنعَة، قد نجمت الأمور به على ما قال، وسلمت الحالُ له فيما ادَّعى، حتى نصَب لعمارات العرب وجماعات الأمم يقاتل بمن طاوعه مَنْ خالفه، وبمن تابعه من عانده، جادًّا مشمِّراً، محتسبا واثقا بموعود الله ونصرِه، لا تأخذه لومة لائم فى ربه، ولا يوجد لدَيْه غَميزةٌ فى دينه، ولا يلفته خذْلان خاذل عن حقِّه، حتى أعزَّ اللهُ دينَه وأظهر تمكينَه، وانقادتْ الأهواء له، واجتمعت الفرَقُ عليه. ألم يكن ذلك يزيد حقه يقيناً عندكم؟ ودعوتَه ثبوتاً فيكم؟ حتى تقول الجماعة مِنْ حُلَمائكم، وأهل الحُنكة من ذوى آرائكم: ما كان الرجل إذ كان وحيداً فريداً قليلاً ضعيفاً ذليلاً معروفا بالعقل، منسوبا الى الفضل، ليجترئ أن يقول: إن الله عزّ وجلّ أوحى إليه فيما أنزل من الكتاب عليه أن يَعصمه من العرب جميعا، ويمنعه من الأمم طرًّا، حتى يبلِّغ رسالات ربه، ويُظْهِرَه على الدين كله، ويَدْخلَ الناسُ أفواجًا فى دينه، إلاَّ وهو على ثقة من أمره، ويقين من حاله.

فسبحان الله يا أهلَ الكتاب! ما أبْيَن حقَّ النبيِّ صلى الله

عليه وسلم لمن طلبه ، وأسْهلَه لمن قصَدَ له ، واستعملوا فى طلبه ألبابَكم ، وارْفَعُوا أبصاركم تنظُروا بعَوْن الله إليه ، وتقفُوا إن شاء الله عليه، فانّ علامات نبوّته وآيات رسالته ظاهرةٌ لاتخْفى على مَنْ طلبها، جمّةٌ لا يُحْصَى عددُها، منها خواصُّ تعرِفها العربُ وعوامُّ لا تدفعها الأمم : فأما الخواص المعروفة لدينا ، المعلومةُ عندنا التى أخذَتها الأبناء عن الآباء ، وقبِلَها الأتباعُ عن الأسْلاف ، فأمور قد كثرت البيناتُ فيها ، وتداولت الشهادات عليها، وثبتت الحجج بها ، وتراخت الأيام ببعضها ، حتى رأيناه عِيَانا ، وقبلناه إيقانا ، فهى أظهر فينا من الشمس ، وأبْيَنُ لدينا من النهار ، ولكن غيبّت الأزمانُ عنكم أمرَها ، ولم ينقل الآباء إليكم علمَها ؛ وما لا يُدْرَك إلا بالسمع موضوعُ الحجة عن العقل فليس أميرُ المؤمنين بمُحاجٍّ لكم ، ولا قاصدٍ إليكم من قِبَلِها .
وأما الآياتُ العوامُّ والدلالات الظاهرة فى آفاق الأرَضين، القاطعةُ لِحُجج المبْطِلين ، التى لا تنكر عقولُ الأمم وجوبَ حقها ، ولا تدفع ألبابُ الأعداء صحةَ أمرها ، فسَيُولجها أميرُ المومنين مسالك أسماعكم ، ويُعيد بها حجةَ الله فى أعناقكم من وجوهٍ جمّة

وأبوابٍ كثيرة إن شاء الله: منها أنه لم تزل الشياطينُ - فيما خلا من فَترات الرسل ونَدَرات النُّذُر - تصعَدُ إلى سماء الدنيا وتُنْصِت الملأَ الأعلى فتسترق السمعَ، وتحتفظ العلمَ، وتنزل به إلى كلِّ أفَّاكٍ أثِيم، يَدْسُون أكاذيبهم على واضِح صدقه، ويُنَفِّقون أباطيلَهم بحسب حقِّه، خالطا للباطل فيه، وتمويها للعباد عليه.

فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم، وأنزل آيات القرآن إليه، حُرِست السماء بالنجوم، ورُمِيت الشياطينُ بالشُّهُب، وانقطعت الأباطيلُ، واضمحلت الأكاذيب، وخاص الوحيُ، فبَطلت الكُهَّان، وضلت السُّحَّار، وكذَبت الأحلام، وتحيرت الشياطين، فكانت آيةً بينة، وعلامةً واضحة، وحجة بالغة، تبهرُ قرائحَ العقول، وتخرق حُجُب الغيوم، فلا يقوم مع ضيائها ظُلمة، ولا يثبُت عند مُحكمها شُبهة، ولا يقُيم معها في محمد صلى الله عليه وسلم شكٌّ، لا من أصحابه خاصةً، ولا ممَّن جاء بعده عامة، وإنما جعلها الله عزّ وجلّ آيةً باقيةً في الغابرين، وحِراسةً ثابتة من الشياطين، لأن الله جعل نبينا صلى الله عليه وسلم آخر النبيين، فليس باعثا بعده نبيًّا يكذِّب أقاويل الكَهَنة، ويَقْطَعُ أخابيرِ الجِنَّة.

وستقول ، فيما يذهب إليه الظنُّ ويقع عليه الرأى أنت ومن عقل من أمتك وأهل ملتك : هذه آية حاسمةٌ وحجة قاطعة بينة قائمة ، مستعلية لأمرها مستغنيةٌ بنفسها ، لا تحتاج إلى ما قبلها ، ولا يُتكل على ما بعدها إن أقرت العقول بما تقول أو قامت البينة على ما تدَّعى ! بلى ! ثم تقول : وأنى لك بالبينة ؟ ولسنا نقر بكتابك ولا نؤمن برسولك ، ولا نقبل قولَك فيما قد سبقَنا و إيَّاك زمانُه ، وحَجَبت الغُيُوبُ عنَّا وعنك علمَه ؟ فأرجعُ إليكم إن قلتم ذلك ، فان وُجدانَ القضاة قبلَ طلب البينات .

وليس يَجْعَلُ أميرُ المؤمنين فيما يُنَازِعُك و يُحَاجُّك فيه حاكما غيرَ عقلك ، ولا قاضيا سوى نفسك ، ولكنه يذ كِّركَ اللهَ الذى إليه مَعَادُك وعليه حسَابك، لَمَّا جعلتَ التفهم لمسألته من بالك و ركبتَ حدودَها فى جوابك ، عادلا بالقِسْط قاضيا بالحق قائلا بالصدق ولو على نفسك، ناظراً بالأَثَرة لدينك ، فَلقد وفق الله لك آية وأهدى إليك بينة، لاتستطيع دفعها لحَجْبها عن عقلك، ولاحِجابا لنُورها دون بَصَرك ، فلا تدفَع الآية بقولك والبينةَ بلسانك ، جَحْدًا بِقَطْع وصول الحُجَجِ إليك ، ويد تُغْلق

أبوابَ الفهم عنك . فان اللسان لك مُدَاوَلٌ حيث شئت ومنقادٌ تُصرِّفه فيما هَوِيت ، ولكن انصب نفسك للفهم وأنت شهيد . وأرِدِ الحقَّ وقبوله فيما تريد . فاذا تصوَّرتَ البيناتِ مجسدَّة فى قلبك ، وتبينْتَ الحُجَج ممثَّلة لنظَرك ، قد أضاء صوابُها لك وقرَع حقُّها قلبَك ، فاجعل القولَ بها شِعاراً للسانِ به متَّصلا ، وأفْهَم المسئلة فهَّمك الله الحقَّ وجنَّبك الجحدَ .

ما تقول أنت ومَنْ قِبلك فى رجلٍ كان يتيما ضعيفا أجيراً ساهِيا لاهيا عائلا خاملا ، لم يتل كتابا ، ولم يتعلم خطا ، ولم يَكُ فى محِـلَّة علم ، ولا إرْثِ مُلك ، ولا مَعْدن أدب ، ولا بيت نبوَّه ، فتراقَتِ الأيامُ به ، واتصلتِ الحالُ بأمره ، حتى خَرج إلى العرب عامة والقبائل كافة ، وحيداً طَريداً شريدا ، مخذولا مجهولا ، مجفُوًّا مرميًا بالعقوق لآلهتهم ، مقذوفا بالكذب على أصنامهم ، منسوبا إلى الهَجْر لأديانهم ، وهم مجِمعون على دَعْوة العصبية وحَمِيَّة الجاهلية ، متَعادُون متباغُون ، مختلفةٌ أهواؤهم ، متفرقة أمْلاؤهم ، يتسافكون الدماء ، ويتناوَحون النساء ، ويستحِلُّون الحرَم ، لا تجمعهم أُلْفة ، ولا تعصِمُهم دَعْوة ، ولا يَحْجِزُهم بِرٌّ ، فألَّف قلوبَها وجمع شَتيتها ، حتى تناصرت القلوب

وتواصلت النفوس ، وترَافدت الأيدى ، ثم اجتمعت الكلمة ، واتّفقت الأفئدة ، حتى صار غايةً لمُلْتَقى رِحَالهم ، ونهاية لمُنتجع أسْفارِهم ، وصاروا له حِزْبا متفقين ، وجندا مُطِيعين ، بلا دُنْيا بَسطها لهم ، ولا أموال أفاضها بينهم ، ولا سلطان له عليهم ، ولا مُلْك سلَف لآبائه فيهم ، ولانباهةٍ كانت له بين ظَهْرانَيْهم؟؟

أتقول إنه ما قال ذلك كلّه إلا بوَحْيٍ عظيم ، وتنزيلٍ كريم ، وحكمة بالغة ! فان قلت ذلك فقد أقررت أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسولٌ . وتركت ما كنت تقولُ إنه لم يدْرِكه ولم يبلغه إلا بعقل سَدِيد ، ونظر بعيد ، ورِفْق لطيف ، ورَأى وَثِيق استبى به عقولَ الرجال ، واستمال اليه أفئدة العوام، فان قلتم ذلك فأنا سائلكم بالحكم الذى تعبدون ، ودينكم الذى تنتحلون ، لَمَّا صدقْتُم أنفسَكم وتجنَّبتم الهوى عنكم : أتؤمن قلوبُكم وتُقِرُّ عقولُكم ، ويحتمل نظركم ، أن محمدا صلى الله عليه وسلم الذى وصفتموه بكمال العقل ، وبيان الفضل ، ورِفق التدبير ، كان يقول لرجالاتِ العرب ، وجماعاتِ الأمم ، ودُهاةِ قريش : إن من آيات نبوتى ، ودِلالات رسالتى ، وعلاماتِ

زمانى ، أن الشياطين تُرْمَى بنجوم السماء ؛ ولم تَكُ تُرْمَى بها فيما خَلاَ ، ثم يجعَل ذلك كتابًا يُقرأ ، وقرآنا يُتْلَى ، وهو كاذب فيما تَلاَ ، ومُبْطلٌ فيما ادَّعى ، إبطالا تدركه عيون الناظرين ، وكذبا يظهر لجميع العالمين ! سبحانَ الله ! أرأيتم أن لوكان فيما قال من الكاذبين ، وعلى ما ادعى من الآثمين ، ثم حاول إبعادَ القلوب ، وإنغالَ الصدور ، وإنفار النفوس ، وتفريق الجموع ، أكان يزيد على ذلك !

فيا أهلَ الكتاب ! لا يحملنَّكم الإنْفُ لدينكم على اللعب بتوحيدكم ! فلعَمرُ اللهِ لئن تداركْتم أنفسَكم وناصحتُم نظركم لَتَعْلَمُنَّ أن محمدا صلى الله عليه وسلم لوحاول الكذبَ ، أو رام الإفكَ لما كان يترُكُ جميعَ الأرض ، وما يغيب عن بعض الخلق ويظهر لبعض ، ويقصد للسماء المتصلة بالبصر ، البارزة للنظر التى لا تخفى على بشر ، ولا تغيب عن أحد ، فيدَّعى فيها كذبا ظاهرا ، وإفكا بارزا مكشوفا ، لا يبقى صغير ولا كبير ولا ذكر ولا أنثى إلا عرف أنه إفك وزور ، وكذب وغرور ولاسيَّما إذا كان يُلقى ذلك إلى أقوام أكثرهم أعراب ، ليس بينهم وبين السماء حجابٌ ، إنما يُراعُون الكواكب

ويتفقدون الغيوم ، فأبعدُ عهدِ آخرِهم بها تفقدُه لها ونظره اليها ساعةً أو ساعتين ، أو ليلة أو ليلتين .

لَعَمْرُ الله لو عَثرت العربُ من أمر النبيِّ صلى الله عليه وسلم على كذبٍ ، لكان أوَّل من يُوَاثِبه به ويُجَادِله فيه أعداؤُه من قريش عامة ، وحُسَّادُه من جِيرته خاصة ، ونظراؤه من أهل بيتِه دِنْيَةً ، الذين كانوا يستعيرونه لكلِّ طريق ، ويقعدون له على كل سبيل ، ويتساءلون من أمره عن كل ذى حادث فيتعلَّقون بالحروف المُشْكِلة ، والآيات المُشْتَبِهة ، جَدَلاً وخصومة بها ، وطعنًا وإلحادًا ومنازعة فيها ، حتى لقد وصفهم الله بفعلهم ، وأخبر عن ذلك من أمرهم ، فقال عزّ وجلّ « بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ » وما كان الله عزَّ وجلّ ليقولَ ذلك ولا لأحد أن يقوله على الله فى أمرهم ، إلا عن خصومةٍ شديدة ، ومنازعة بليغة ، ومجادلة معروفة ، فأحسنِ النظرَ لنفسك ، ولاتَهْلِكَن شفقةً على مُلْكك .

فَأَيْمُ اللهِ لَئِن قلتَ إن النجوم شيء كانت العرب تراه بعيونها وتعرفه بقلوبها ، فما كان محمد صلى الله عليه وسلم وهو

عارف بها غير جاهل لها ، ايقولَ فيها إلا حقّا ، وينتحل فيها إلا صدقا ، لقد ثبتت فروع كلامك فيها على اسّه ، ووصلتَ آخرَ قولك له بأوّله ثبوتا على ماذكرتَ من عَقْدِه ولزوما لما فرّطتَ من نظره ، ولكنك لا تجد مع الإقرار بذلك بُدًّا من التصديق برسالته ، ولا مذهبا عن الايمان بنبوّته .

ولئن زعمتَ أنه ادعى أمر النجوم كذبا وانتحلها باطلا ، عارفا كان بها أم جاهلا ، لقد نسبتَه من الخطأ الذى لا يَعْمَى عن بصره إلى ما يخطئ فيه بَشَرٌ . فأكْذبتَ نفسَك ، وتركت قولك : إنه لم يكن التأليفُ لقلوب العرب والجمعُ لشتَيت القبائل ، إلا برأى سديد ، وعقلٍ أصِيل ، ورفق بالغ ، إلى أحد أمرين لا تجد لكلامك وجها تذهب اليه غيرَهما ، ولا مَحْمِلا تضعُه عليه سواهما ، إما أن تقول : إنه أَلَّف قلوبَ العرب ، وفرّق جمُوعَ الأمم بتنزيل الوحى ، فتؤمن أنه نبيٌّ . وإما أن تقول : فعل ذلك بجهل . وهذا قول لا يُقْبل ! كيف يصفه أحد من الجاحدين به ، المكذِّبين له بغباوة ، أو يرمونه بجهالة ، وهم يجوزون به حدود الأنبياء ، ويرفعونه فوق أمور العلماء ، ويتخطّون به مراتب الحكماء ومنازل الناس ، تكثيراً

لعلمه ، وتسديداً لعقله ، وتثبيتاً لفضله ، فيما لا يقدر الخلق عليه ولا تهتدى الألسن إليه ، حتى لقد نَحَلوه فعلَ الربّ الذى لا يقدر عليه الخلق فى وجوه كثيرة وأنحاء جمة ، من ذلك أنه إذا قالت البقايا من أمتنا : كان محمد صلى الله عليه وسلم يُخبرنا بالغيُوب قبل ظهورها ، ويَصِفُ الأمورَ قبل حُلُولها ، ويتجاوز (ما يكون) فى زمانه من ذلك إلى ما يكون فى زماننا غيباً ، أطلعه الله عزّ وجلّ عليه ، أضافوا ذلك علما إليه ، فقالوا : كان أعلم الناس بمواقع النجوم ، وأبصرَهم بمنازل البرُوج ، وأنظرهم فى دقائق الحساب ، كيف ولم يكن الحجاز دارَ نجوم ولا محلّ حساب ولا معدن أدَب ! بل كيف والمنّجم يقيس ويخطئ ، ويشك فيما يدّعى ، وهو أخو صواب لا شك فيه ، وفارس صدق لا قياس معه !

ومن ذلك أنه إذا قالت العلماء من المسلمين : كان نبينا صلى الله عليه وسلم (عليما) بباطن أخبار النبيين ، وخَفِىّ قِصَص القرون الأوّلين ، قالوا : كان أحيا الناس قلباً ، وأوسعَهم سَربا ، وأسرَعهم أخذا ، يتتبّع ذلك ويحبه ، وقد رواه وعُلِّمه ، سبحان الله ! ! أوَلا يعلمون أن المتعلّم معروفُ المعلِّم ، متفاوتُ

الحالات ، متنقّل الطبقات ، وأنه ما أحدٌ يؤدّب صغيراً أو يطلب العلم كبيراً ، إلاوله درجاتٌ فى علمه ، وتاراتٌ فى أخذه ، ومنازلُ فى تعلّمه ، تارة تلميذ وتارة مُقارِب ، وأخرى حاذق ، وبكل ذلك موصوفٌ من أهله ، معروفٌ عند قومه ، ظاهرٌ لجيرته ، مستفيضٌ فى عشيرته ، لا يجْهَلُ أمره ، ولا يَخفَى ذِكرُه ولا يُنْسَى عند مواضع الحاجة اليه ، وتارات الاحتجاج به عليه ، ولو كان ذلك معروفاً فيهم ، أو موجوداً لديهم ، أو ظاهراً عندهم لما أمره الله عزّ وجلّ أن يحتج عليهم ويقول فى ذلك لهم : لَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ. لا أتلو قرآنا ، ولا أدَّعِى وحياً ، أَفَلاَ تَعقِلونَ ! !

وايم الله ! لوكانوا يعقلون أو ينظرون ، لعلموا أن معلّمه على غير الملة التى يعرفون ، لأنه لهم من المخالفين ، وعليهم من الطاعنين ، يذكر فَضَائِحَ قولهم ومَعَايِبَ أمرهم ، ومَخَازِىَ أسلافهم ، وعوار أديانهم ، وأنه لو كان معلّمه نَصْرَانيًّا لدعاه إلى النصرانية ، أو يهوديًّا لدعاه إلى اليهودية ، أو مجوسيًّا لدعاه إلى المجوسية ، ولو لم يكن له معلّم لَمَا وقع على الحقيقة هدايةً من تلقاء نفسه ومعرفةً بقوة عقله ، ولو كان معلمه الشيطانَ لَمَا

دعاه إلى عبادة الرحمن ، ولا أمره بهجر الأوثان ، وكسر الأصنام ، وصلة الأرحام ، والإصلاح فى الأرض . كيف ! وكان الشيطان يصُد الناسَ عن سبيله ، ويُزَهّدهم فى دينه ، وينهاهم عن طاعته ، ويخرجهم من عبادته ، ويُدخلهم فى مَسَاخطه ، ويحملهم على معَاصيه ! إنه إذاً لرحيمٌ بهم ، ناظرٌ لهم ، شفيقٌ عليهم . كأنه هو المبعوثُ إليهم . كلا ! ما كان ليُنْقذهم من حَبَائله ، ويخلِّصهم منْ مَصَايده ، ويُخْرِجهم من ولايته وطاعته وسلطانه وخُدَعه وفتنته وحزبه ، إلى غير ذلك من أمره وما كان لينهى العرب أن يقتلوا أنفسهم ، ويتناوحوا حُرَمهم ، ويُؤْذُوا ذرِّيتهم ولا ليقولَ لهم : لم تعبدون نَحيتَ الحجارة التى جعلها الله لكم عاراً ، وتَذَرُون عبادةَ الربّ الذى خلقكم أطواراً

هيهاتَ ! لقد ذهبتم بالشيطان الرجيم إلى صراط العزيز الحكيم ، فقلتم قولا تُنكره العقول ، وتدفعه القلوب ، وتستوحش منه النفوس ، ألَا تسمعون إلى قول الله عزّ وجلّ « فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فى الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ، أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّٰهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمٰى أَبْصَارَهُمْ »

فما كان الشيطان ليرضى للعرب باللعنة والبَكَم والعمى والصمم فاتّق الله ولا تكن من الجاحدين .

ومنها أنه إذا قالت الفقهاء والحكماء : أتانا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكلام لم تسمع الآذان بمثله ، ولم تقع القلوبُ على لُغته ، له رَونَقٌ كَحَباب الماء ، وَزِبْرِجٌ يعلو ولا يُعْلَى ، وعجائب لا تَبْلَى ولا تفنَى ، وجِدَّةٌ لا تتغيّر ، قالوا : كان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبْلَغَهم قولا ، وأحسنَهم وصفاً ، فياسبحان الله ، ألا يعلمون أن لو كان القرآن كلاماً للعباد ، لما أقرّت الأعداء من ... ... [1] بفضله ، ولا عَجَزتِ القبائل طُرًّا عن مثله ، وهو يناديهم فى الكتاب ، ويتحداهم فى الوحى ، بصوت رفيع ، ونداء سميع ، فيقول « هَاتُوا سُورَةً مِنْ مِثْلِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » وهم فرسان الكلام ، وإخوان البلاغة ، وأبناء الخُطب ، وَأَهلُ عداوةٍ له وَبغىٍ عليه ، فتستحسر الأبصار ، وتثقُل الأسماع وتنعقدُ الألسُن ، وتخرَس الخطباء ، وتعجَز البلغاء ، وتحَار الشعراء ، وتستسلم الكُهّانُ . ثم لقد

(١) بياض فى الأصل بمقدار كلمة ولعله « المشركين » .

قايست البُصراء بالكلام والعلماء بالمنطق ، بين ما بأيدينا من كلام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما جاء به من كلام الوحي ، فاذا بينهما بَوْن بعيد وتفاوت شديد ، ليس بشبه له ولا مدان ولا قريب ، وكذلك ينبغي لكلام الرب عزّ وجلّ أن يعلو كلام الخلق ، وألاّ يشبه قولَ العباد في تأليفه وأحاديثه ومعانيه وجميع مافيه ، لأن الله عزّ وجلّ لا يشبهه شيء .

من ذلك أنه إذا قال المسلمون : كان محمد صلى الله عليه وسلم يُرِي ماضيَ أسلافنا وصُلَّح آبائنا من العجائب العظام ، والآيات الكبار ، اهو جديدٌ عندنا ، بَيِّنٌ قِبَلَنا فلم يَعفُ أثرُه ولم يَدْرُسْ خبرُه ، ولم يتقادَمْ عهدُه من شجرةٍ ناداها فأقبلتْ ثم أمرها فرجعتْ ، ومن نحو بعيرٍ تَظَلَّم ، وذئبٍ تكلم ، وأشباهٍ لذلك كثيرة ، و نظائرَ له عجيبة ، قالوا كان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كاهنا حاذقاً ، وساحراً ماهراً ، يُشَبِّه بالخيال ، ويأخذ بالأبصار . كيف والجموعُ الكثيرةُ تصدُرُ عن الأطعمةِ اليسيرةِ والمياهِ القليلةِ ، شِباعاً رِواء ، أيكون ذلك والسحر سواء ! والأخذُ بالعيون لايجرى في البطون ، ولو كانوا ينظرون لدِينهم ويُنْصفون من أنفسهم ، لعلموا أن أمر الساحر

يدور على إفكٍ وغُرور وأن لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ آثاراً قائمة ، ومنافعَ دائمة ، ثم لو كانت الكَهانةُ والسحرُ يبلُغان مثل هذا من الأمر ، لبطلَتْ آياتُ الكُتُب ، وعلامات الرسل ، ولعَلَتِ الشُّبْهَةُ ، وسَقَطت الحجة ؛ وكَذَبَتِ النبوّة ، وابطَل ما كان يفعله عيسى عليه السلام من إبرائه الأكمَه والأبرصَ وإحيائه الموتى ، فلا يكون التقليدُ للرجال مبلغَ علمك ، ولا القبولُ لدعواهم بلا بيِّنة .

ومن ذلك (أنه) إذا قالت البُصراء من أمتنا والعلماء بملتنا كان النبيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ أُمِّيًّا لا يُحسن الكتابَ ، وحافظاً لا ينسى القرآن ، وقلَّما يجتمع العقل السديد والحفظ السريع والنسيان البطيء ، قالوا : كان أخطّ الناس يداً ، وأذكاهم حفظاً ، كان يكتب بالنهار ، ويدرس بالليل ! !

ولعمر الله أن لو كانت الحال كما يقولون والأمر كما يصفون لما خَفِيت الصحف له ، ولا اُكْتِتمت الدراسةُ عليه ، ولَما كان يُطيق سَتْرَها عن أهله ، ولا حجابَها دون قومه . وكيف تُؤمن القلوب وتُقِرُّ العقول أن رجلا كبيراً حمل علماً كثيراً

وحكماً جَمّاء ، من آيات متشابهة ، وسُوَرٍ متوالية ، وهو صاحب أسفار مترامية ، وأخو حربٍ دائمة لايبطئ افظه ، ولا يسقط حفظه ، لولا أن الله عزّ وجلّ كفاه أن يُحَرِّكَ به لسانه ، وضَمِنَ له جَمْعَه وقُرْآنه ، فقال عزّ وجلّ « سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى » فلم يكن يُسقط واواً ولا ألفاً ، ولا يَنْسَى كلمةً ولا حرفا ؟ ما أبينَ هذا وأعجبَه ! وأعجبُ منه المنكرُ له ! !

وأما قولهم فى الخطّ وإكثارُهم فى الكتاب ، فان الله عزّ وَجلّ جعله أُمِّيًّا ليُثبت حجتَه ، ويصدق مقالته ، ولئلا يَشُكّ المبطلون فى أمره ، ويقولون تَعَلّمه من غيره ، فانه قد قال ذلك بطائنُ من مُنَافِقة العرب وطوائفُ من كَفَرة العجم ، فنطقت به الأعداء من جيرته ، والحسدة من عشيرته ، الذين بلغوا ما بلغوا من مجادلة حقّه ، ومخاصمة ربه ، كفاة لمن قرُب ، ووكلاء لمن بَعُد ، فيما لم تكن العرب واقعةً عليه ، ولا الأممُ مهتديةً اليه ، لأنهم قد أحاطوا من علم خَبَره ، وخَفِيٍّ أثَرِه ، بما كان عن غيرهم محتجبا ، ومن سواهم مكتتما ، وقالوا : لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يتعلّم من بشر أو يختلف إلى أحد ، لما خفى عنا ولسقط علينا .

وحقا لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يختلف إلى أحد صغيراً ، أو يتعلّم من بشرٍ كبيراً ، لَعَرف ذلك أترابهُ المختلفون معه ورفقاؤه والمقتدون ، ولما جهل ذلك مَن حوله من جيرته نصرة ولا مَنْ معه من أهل بيته دِنية ، الذين عليهم يورِد ومِن قِبلهم يُصْدِر ، ولكان شائعاً عند حشَم معلِّمه وجيرة موضعه الذين كان يختلف إليهم ، ويتأدب بين ظَهْرانَيهم ، ولو كانوا بذلك عالمين ، أو فيه من أمره شاكِّين ، ثم بَلَغهم وتقرّر قِبَلهم أنه يقول : إنّ الله عزّ وجلّ أوحَى اليه ، فيما أنزل من الكتاب عليه « وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ » لخاصمه منهم من كَفَر ، ولكفر به منهم من آمن ، ثم يدعى ذلك قرآنا ، وينتحله وحيا ! أما كان يرهَبُ أن ينتشرَ فى الأقربين ، ويخرج إلى الأبعدين ، فتبطلَ حجّتُه ، وتنتقضَ دعوتُه ، وتسقُط نبوّته ، وَينْفِرَ أصحابُه الذين لم يَصْبروا معه فى المجاهدة أنفسَهم ، ويبذُلوا عند الشدائد مُهَجهم ، ويُنفقوا فيه على الحاجة أموالهم . مُناصبِين لأهل الشرق والغرب والعجم وكل الأمم ،

وهم قليلون مُسْتضعَفون عائلون جائعون ، لا طلباً لدنيا ولا طَمَعًا في منال ، إلا لما تَعَقَّبُوا من قوله ، وعَرَفوا من صدقه ، ولولا أنه أخبرهم ووعدهم أن يغلب كسرى وقيصر لهم ، فصدَّقوا بقوله ، وآمنوا بوعده ، حتى قَويت البصائر ، وصَرُمت العزائم ، وقويت النيات ، فنَشطت النفوس ، وشَجُعت القلوب ، وحملت الأبدان ، لما وَقَعَ لهم طمع فيه ، ولا ذهب لهم وَهَلٌ اليه ، فكن من ذلك على يقين لا يخلجه شكٌّ ، ومعرفةٍ لا يخالطها ريب ، إن شاء الله .

ومن ذلك أنه إذا قال المسلمون : مامن فَعَالٍ محمود ، ولا مقالٍ معروف ، وَلا خلق كريم ، ولا أدب فاضل ، إلاَّ وقد أدَّب الله عزّ وجلّ به محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأنزله في الكتاب اليه ، فكان يأمر بالمكارم ، ويحضُّ على المحامد ، ويعمل بالمحاسن التى ليس فيها مَدْخل لشبهةِ طاعنٍ ، ولا مَعْلَقٌ لحجة قائل ، ولا مغمزٌ لبصيرة عائب ، ولا موضعٌ لخصومةِ بشر ، في وعد أو عهد أو حَلٍّ أو عقد ، أو مقال أو فِعال ، أو غير ذلك من الأمور .

قالوا : أمور حَمَلَ عليها نفْسَه ودعاه اليها عقلُه ، وصبرَ عليها ، لِمَا أمَّل ورجا فيها .

سبحان الله ؟ وما أمَّل بها وارتجى منها ؟ إن قالوا : الدنيا فلقد أكذبهم إدبارهُ عنها حيث أمكنته القدرةُ منها ، وأعثرته الحال عليها . وإن قالوا : حبَّ الأَثَرَة ، فقد جعل نفسه للمسلمين أُسوةً فى سهامهم وقِصاصهم ، وحُدودهم وحقوقهم ، وغير ذلك من أمورهم . وإن قالوا : المُلك ، فلقد كان أشدَّ الناس لربه تواضُعا ، وأعظمهم فى جَنْبه تصاغُراً ، ما إن أكل متكئاً قط إلا مرة ، ثم قعد كهيئة الفَزِع لها النادِم عليها ، فقال « اللهم انى عبدُكَ ورسولك » وان قالوا : النعيم ، فمن كان أيبَسَ منه مَعَاشاً ، وأخشَنَ رِياشا ، وأغلظ مأكلا ، وكيف يذوق العيشَ أو يجد لذيذ النعيم ، من حَرَّم السكرَ والخمر ، ونهى عن الديباج والقزِّ ، وكان أكثرَ دهره صائما ، وأطولَ ليله قائما ، فان قالوا : طلب الصوت ورغب فى الدين ، فذلك مالم يطلبه أحدٌ فى حبِّ الصوت والتماس الحمد لما صبر مغاضب قومه ، وملاوم أهله ، وشتائم العرب ، وتوعد العجم ،

واستهزاء قريش ، يرمونه بالعقوق و يقذفونه بالجنون ، و يبهتونه بالسحر ، وليس يدرى ما يهجُم به الأمر .

أم يقولون : طَلَبَ تأثيلَ المُلْك لقومه ، وأراد تَوطئةَ الولاية لأقاربه ! فكيف يطلبُ لقومه ما قد زهِد فيه لنفسه ، أم كيف يطلبُ لهم عزَّ المُلْك وقد أوطأهم الذلَّ ثم القتل ؟ لعَمْرُ الله أن لو أرادَ المُلْكَ لأقاربه ، وأراد طلبَ السلطان لذوى رَحِمه لوَكَّدَ لهم عقْدًا لا يُحَلُّ ، ولأَبْرم لهم أمراً لا يُنْقَض ، ولأَثَّل لهم فى عُنفُوان أمره مُلْكاً لا يخرج من أيديهم ، ولا يبرح أبداً فيهم ، امتثالاً لصنيعكم واحتذاء على مِثالكم ، مع أقاويلَ جَمَّة ونظائر كثيرة ، لا يستقيم لهم معها أن يقولوا إن محمدا صلى الله عليه وسلم غَلَبَ العرب وَقَهَرَ العجم ، أو قال فى أمر السلطان والنجوم بكذب .

فان قلتم إن محمدا صلى الله عليه وسلم كان فى قوّة عقله و بيان فضله . على ما قلنا وقلتم وصَدَّقنا به نحن وأنتم ، ولكن هَفَت العلماء وزَلَّت الحكماء وأخطأت القلوب ، فقد يعلم أميرُ المؤمنين ـ وأنتم بذلك من العالمين ـ أن خطأ قلوب العلماء

تخطأ دائرة الرَّحا ، ليست العلماء بخطئة إلا المرَّة والاثنتين كما لا تخطئ الرحى إلا الحبَّة والحبتين ، ومثل الذى نسبتم إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم من الخطأ عندكم والجهل فى أنفسكم ، كثيرٌ لا يُحصيه أحد ولا يبلُغه عدد ، وأميرُ المؤمنين واصفٌ بعضَه لكم ، وموردٌ ما حضَرَ كتابَه إن شاء الله لكم . وأيم الله على ذلك لو قالت العلماء من المسلمين هَبوا محمدا صلى الله عليه وسلم كان فى أمر النجوم من المخطئين ، فكيف أخطأتِ العربُ وهَفَت الأمم فى ترك مجادلته ورفض منازعته . وكيف لم تقل العلماء من إفنائه (١) والحكماء من حكمائهم ، توبيخاً منهم له وتعييراً لمن آمن معه ! هذا أمرٌ من أوضح الأكاذيب وأبطل الأباطيل ، فلا يثبُتُ مع قولهم إيمانٌ ، ولا يقِيم على شرحهم إنسان . فان قلتَ : فلعل ذلك قد كان ، ولكنه دَرَج على طول الأزمان ، فكيف إذا صدَّقت العربُ بنبوته ، ولم تكفُرِ القبائلُ برسالته ، وهم يسمعون كذبًا لا ينفع معه صدقٌ كان قبلَه ، وباطلاً لا يَعْصِم معه حقٌّ حَدَثَ بعده ؟ وإن قلتم :

(١) كذا فى الأصل .

أدخلهم بالقهر وضبطهم بالقتل وأكرههم بالسيف ، فما بالُ القليل من المسلمين الذين قهرهم الكثير من المشركين ، مابالهُم آمنوا وصدّقوا ، وصبروا وصابرُا ، وجدُّوا وجاهدوا؟ كيف لم تنكسرْ عزائمهم ، وتهِنْ بصائرهم ، ويرْجعُوا إلى دِينهم ، ويهربُوا عن توحيدهم ؟ كلا ؟ لوكان الأمر على ماتقول لأُرفضَّ القومُ عن الرسول ، ولكان صلى الله عليه وسلم أوَّلَ مقتولٍ أو مخذول .

فأحسِنِ النظر فيما تذهب الأهواء برأيك اليه من آيات النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن جَمَحت الدعوى بكم ، فقائل قد مالت به الأهواء فى الباطل ، فقال : إنه إلا يكن الأنبياء ذكرتِ النجومَ فى صُحُفها بينت الحكماء منها ذكرًا فى كُتبها ، فجعلت المنقضَّ من الكواكب بين الأعوام ، دليلا على أَمر يحدُثُ تلك الأيامَ ، ولا ماهذا الاختلاق يلطُّ به الجاهل الفساق ، ما إن وضعت الحكماء ذلك فى الكتب إلا ليالى ملئت السماء من الشهب .

وبالله لو ادعيتم غير ذلك فكان حقًّا ، وكانت القالةُ منكم صدقا ، لما كانت الدعوى بناقضةٍ لآيةِ النجوم حجة ،

ولا مدخلة على أحدٍ فيها شبهة ، لأن رمياً يقع فَرْطَ السنين من الكواكب لا يَبْطل رَجْماً قد ملأ السماء من كل جانب ، ثم لولم تكن النجوم آية دامغة ، وحجة بالغة ، ودلالة قاهرة ، وعلامة باهرة ، وأمارة ظاهرة ، وشهادة قاطعة ، و بينة عادلة ، وداعية قائمة ، تبْطِل أطانين المشركين ، وتَرْدَع أقاويلَ المنافقين ، لما كان النبي صلى الله عليه وسلم لِيُعظم أمرَها ، ولا ليكرّر في آى القرآن ذكرها ، رهبة لمناهضة أحياء العرب ، ومعرفةً بمجادلة إخوان الكتب ، الذين لو وَجدوا فيما كَتَبَ به اليك أميرُ المؤمنين من أمر النجوم ، واحتجّ به عليك من ذكر الرجوم ، موقعاً لظن ، أو مَعْلَما بطعن ، أو مغمزاً لقول ، لناصبُوه إذًا بالمجادلة ، وكَاشَفُوه بالمنازعة وجاهَرُوه بالقول الذى لا يستطيع له ردّا ، ولا يطيق له جَحْدا .

ولكنها آيةٌ ملأت الأقطارَ كثرةً ، وحَسَرت الأبصارَ قوة ، قد وجلت العقولَ ، و ولّهت القلوبَ ، وملأت النفوسَ جَزَعا و وجعا وفزَعًا شَغلهم عن الأولاد ، وأذْهلهم عن البلاد ، حتى بلغ أميرَ المؤمنين وتقرّر عند فقهاء المسلمين ، أن الله عزّ وجلّ ، لما ملأ السماء حَرساً ، وأحدث لها رَصَدًا ، وخلق

فيها شُهبًا ، ذكرت العقلاء من العرب ، وقعَات الله عزَّ وجلَّ في الكتب ، بقوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ ، وأشباهِهم من مؤالفي تلك الجنود ، الذين كانوا أشدَّ بَطْشًا، وأكثر جمْعًا ، فانفرجتْ أيديهم عن كرائم أموالهم ، وأرسلت أنفسهُم مَتائنَ عُقَدِهم ، وإن أهلَ الطائف لما فعلوا ذلك بأموالهم وأجمعوا فيه الخروجَ إلى فقرائهم ، قام فيهم رجلٌ منهم ذو سنٍّ وعقل فقال : « يامَعْشَرَ العرب ؟ لا تهْلِكُوا أنفسكم قبل أن تهْلِكوا ، ولا تخرُجوا من أموالكم قبل أن تُخْرَجوا ، تفقَّدوا مواقع نجوم السماء ، وكواكبَ بدورِ الدُّجَى ، فان كانت النجومُ التى حدث الرمْىُ بها ، والنجومُ التى أخليتمُ الأموالَ لها ، هى لبُروج الشمس والقمر ومسالِ (١) الحيوان والشجر ، فهى جوائحُ الاستئصال ، المتلِفة الأنفسِ والأموال ، وإن كانت النجوم التى حدث القذف بها ، إنما هى نجومُ خُلقت اليوم ، فليست المعرفة بواقعةٍ على مبتَدَاها ولا الأبصارُ بلاحقةٍ منتهاها ، فأمسِكوا العُقَد عليكم والأموال ، فانه أمر يحدُث فى احدى هذه الليال .

---

(١) كذا فى الأصل .

فان قلت : وكيف وقعت الأمورُ فى هذا الرجل كالعيان ، وصارت المقالةَ كوعْى الآذان ؟ أنبأك أميرُ المؤمنين أن أوعيةَ الفقه من المسلمين ، الذين حملوا إلينا سُنَنَ الدين ، هم أدَّوْا ذلك الينا ، وأبقَوْه فخراً . . . [1] علينا ، فما إن ينْفَكُّ منهم مفتخرٌ يقول : أبونا الذى حبَس على العرب الأموالَ والعقد ، فما إن يدفَع القول فى ذلك منَّا أحد .

هيهات . ما كانت العربُ لِتُقرَّ عند الفخار ، إلا بطَوْلٍ هو أبْيَنُ فيها من ضوءِ النهار ، فافهم ما كتب به أميرُ المؤمنين فى هذا اليك ، ولا يكن التعللُ فيها بالشُّبُهات أوثق مالديك ، فانه قلَّ حجَّة إلا وإلى جنْبِها شبهةٌ تخَيَّل للعقول ، وتعَرَّض للقلوب ، وتجلْجَلُ فى الصدور ، فلا يثبت مع تخيُّلها ، ولا يُقيم لتعرُّضها بَشَرٌ إلا من وزَنَ الحقَّ والباطلَ بميزان عادل ، لا يميل إلى تَفْريط ، ولا ينحَط فى تقصير . وقد جعل الله عزّ وجلّ العقولَ موازينَ للأمور . فزِنُوا ما سمعتم من حجج كلام الربّ عزّ وجلّ بما تَنْفُون به الشبهةَ عن الحق ، ولا تميلوا اللسانَ فتخسَرُوا الميزان ، وسيعلل أميرُ المؤمنين إن شاء الله بما جاء

---

(١) بياض بالأصل بمقدار كلمة .

عن ذكر ما كتب به اليكم من أمر النجوم والرُّجُوم والشُّهُب في القرآن والرِّواية والكتُب ، فألطِفُوا النظرَ في صحة معانيه ونحُّوا الهوى عن شبهةٍ ماوقعتْ فيه : قال عزّ وجلّ : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ » . وقال : « وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ » . وقال : « إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ » . وإن شطب عن الحق شاطب ، أو ذهب إلى الباطل ذاهب ، لايعرِف مذاهبَ كلام العرب ، ولا وجوهَ معاني الكتب ، ولا تفسير آيِ القرآن ، فقال : إنما جُعلت الكواكبُ والمصابيح حفظاً من الله عزّ وجلّ للسماء ، ورُجُوما للشياطين من قبل أن يبعثَ الله محمدا صلى الله عليه وسلم بالدين .

فان في آيات القرآن ما فيه بيانٌ مما يُبْطِل دعواه التي لابينةَ عليها ، ويكذِّب مقالَته التي لاشُهُود لها ، فقالت الجن ـ فجعلَ الله تبارك وتعالى قولها وَحْيا ـ وبه منها صِدْقا :

« وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيداً وَشُهُباً » . ألا ترون أنها كانت الجن لمست السماء فلم تجدها ملئت حرسا شديدا وشهبا ، وقَعدت الشياطينُ منها مقاعد للسمع فلم تجد شُهُبًا ولا رَصَداً ، أوَلا يسمعون إلى ما يحقِّق ذلك ويسدِّده ويصدِّقه ويشهدَ له من قول الله تعالى : « هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ » مع قولِ الجنّ أيام حُرِست السماء ورُميت الشياطينُ : « وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً » . فاذا أعملتم فى ذلك فكرَكم ، وقلَّبتم فيه نظرَكم ، فكنتم على برهانٍ يَقينٍ ونورٍ مستبين من استطاعةِ الجنّ للاستماع وقدرةِ الشياطين على الاُستراقِ وإمكان السماء للقعود فى تلك الحال الأولى ففكِّروا فى الحال الأخرى حيث حرست الآياتُ أن تعارِض باطلا بحق ومُنعت الشياطينُ أن تَنزل بصدق ، وامتنعت السماء أن يصعدَ اليها شيطان ، فقال الله عزّ وجلّ « وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ

لمعزُولونَ » . قالَتِ الجِنُّ : « وَأَنَّا كُنَّا نَقعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً » إن فى قولهم الآن لأعظَم نور و بيان . وأبْيَنُ من ذلك لكم وأصحُّ لِمَنْ عقل إن شاء الله منكم إخبارُ الله عزّ وجلّ حين جُعلت الكواكبُ حفظاً من كل شيطان ماردٍ ، أنهم « لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ » مع إخباره فى الحال الأولى أنهم يسَّمَّعون ويقعدُون وينزلون ويستطيعون ويَتْلُون على مُلْكِ سليمانَ ؛ فكن لهذا من الحافظين ، وفيه من المفكِّرين .

ومن آيات النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه لما نفَرت القبائلُ من أعلام الشرك بجموعها ، وتَدَاعتِ القادةُ من صنَاديدِ الكفر بأتباعها حَذَراً على عِيرٍ لها أقبلت من الشام بصنوف رَغَائبِ أموالٍ عِظَامٍ ، فكانت العِيرُ والنَّفِيرُ طائفتين : طائفةً ذاتَ عُدَّة كثيرة وشوْكَة شديدة ، وطائفةً ذات أموال رَغِيبة ورجالٍ قليلة وفرصةٍ ممكنة ، أخرج الله عزّ وجلّ نبيه صلى الله عليه وسلم ووعَده ومَنْ معه من المسلمين إحداهما .

فكره المؤمنون جموع المشركين وأراد الله عزّ وجلّ أن يقطعَ دابرَ الكافرين، ويشيِّدَ بذلك أركانَ الدين، فلما تراءتِ الفئتان، وتناوشت الفُرْسان، وتلاقى الناس، وقبل ذلك ما قال الله عزّ وجلّ « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » قبض النبيُّ صلى الله عليه وسلم قبضةً (من تراب) حثاها في وجوههم، فلم يتناهَ دون مناخرهم وعيونهم فانصرفوا منهزمين بلا كثيرِ قتالٍ من المسلمين، يا أهل الكتاب، فأيُّهما آيةٍ أعظم حجةً وأوضح بيِّنة وأقهر غلبةً من هذه التي لو صدرت الأمور بلا تحقيق لها لا نفضَّت الجموع من المسلمين كفَّاراً بها، أبشارة الله المسلمين بامداد الملائكة المقرّبين، وهزيمة نفير المشركين، التي نجمت الامور عليها، وتناهت الحال بهم اليها أم قبضةٌ من ترابٍ يسير، ماملأَ المناخرَ من عَدد كثير.

فلئن قلتم: إن هذه آياتٌ بيِّنات، وعلاماتٌ واضحاتٌ، ولٰكنا (لا) نقرّ لكم بها ولا نؤمن بقولكم فيها.

أفتؤمنون أن محمداً صلى الله عليه وسلم مع مانسبتموه من الفضل اليه كان يختلقها كذبا من تلقاء نفسه. ثم يدَّعيها وحياً

من عند ربه وهو لا يدرى لعل الأمور (تقع) بخلاف مايقول فيظهر كذبهُ ، ويَرْفضَّ تبعه ، وإن تزعم أن أصحابه كانوا كثيراً أقوياء ، نشاطاً جُلَداء ، فكان على معرفةٍ بقوتهم ويقينٍ من غلبتهم . فقد قال الله عزّ وجلّ « وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ » . ولم يكن الرسول ولا غيرهُ ليُخبرَ أصحابه من أمورهم بما يجهلون من أنفسهم ثم يدَّعِى ذلك تنزيلاً من ربهم ، هذا لا تقبله الآراء . ولا تُقِرُّ به الحكماء ولا يحدّه النظر .

أم تقولون : إنما أراد محمد صلى الله عليه وسلم ببشارته لهم وإخبارِه ما أخبرهم من هزيمة الله عدوَّهم ، أن يشجِّعَ جُبنَهم ويُقَوِّيَ ضعفهم ، فكيف إذا لم يبق لما كان يرى من كثرة المشركين وقوتهم ، وضعف المسلمين وقلتهم بظهور الأنباء على خلاف قوله ، وأن يحتال الخبر[1] على غير ظنه ، فيقع ظفر يكذب نبوته ، ويقطع حجته ، ويكون له مابعده . وكيف إذا لم ينسب الأمرَ إلى نفسه ويُنَحِّى الخبرَ عن ربه ، ليكون

(١) هكذا فى الأصل .

الخطر أصغر والشأن أيسر إن جرت الأقدارُ بما يحذر ، أو وقعت الأمور على ما يكره . ولكنه أثبته فى كتاب مسطور ورَقٍّ منشور ، فهلْ لعمر الله يدلُّ على النبوَّة التى كان بها واثقاً ، ويهدى إلى الوحى الذى كان إليه ساكنا .

وإن عرَض لنظرك ، أو وقع فى خَلَدك ، أن الله عز وجل عوَّد محمدا صلى الله عليه وسلم الغَلَبة وأجراه على المَنَعة ، فكان يجرى على عادةٍ قد عرَفها ويسلُك جادَّةً قد خَبَرها ، فلقد كانت الهزيمة فى أوَّل وقْعَة أوقعها الله ، ثم لقد دالت الحربُ فيما بعدُ سِجَالاً فيما بينه وبينهم ، تارةً عليه لهم وأخرى له عليهم، فناصِحُوا اللهَ عز وجل فى نظَركم ، وقلِّبوا فيما يقول أمير المؤمنين فكركم . فَلَعَمْرُ الله ما كان النبى صلى الله عليه وسلم ليقول للملوك المشركين : إن الله هَزَمكم برَمْية من تراب ، وهو يعلم أنه عنده من الكاذبين . فأحضر كتابى هذا فهمَك ، واصبرْ له وإن خَصَمك ، فان هذه آية عظيمة ، وحجة بليغة وبيِّنة عجيبة ، فى غَلَبة العرب .

وأعجب من هذه وألطف ، وأكثر منها وأعظم ، الآية في غاية العجم ، واستمعْ : أمَرَ الله نبيَّه — صلى الله عليه وسلم — أن يقول للمؤمنين — وكانوا كما قال الله عز وجل : قليلا مستضعفين — إن قبائل العرب ستتحزَّب عليكم ، وإن الله سيهزِمُهم لكم ، وحياً أنزله في الكتاب ، فقال : « جُنْدٌ مَاهُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ » فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد مانزل هذا القول عليه بدهور طويلة وسنين كثيرة ، محبوسين محصورين في حومة الموت وعسكر الخوف وخندق القهر ، وذل الحصر سوادُهم الأعمُّ وجلُّهم الأعظم حُفَاةٌ عُرَاة عالَةٌ ، إخوان دبر ، وأصحاب وَبَر ، لاقوّة بهم ، ولا مَنَعة لهم ، ولا أسلحةَ عندهم ، ولا عدّة معهم ، قد أحدقت العربُ بعسكرهم ، وأحاطت القبائل بخَندقهم ، وسالت الأحزابُ تصديقا لحتم الله عليهم ، تريد أن تزلزل أقدامهم وتُهريق دماءهم ، فكان المؤمنون كما وصف الله عز وجل من سوء الحال . وضيق المآل ، وشدة الكِظاظ . فان الله قد وصَف لهم حالَهم ، وأذكرهم فعلَهم : ولم يكن النبيُّ صلى الله عليه وسلم

ليصف لهم عن الله مايجهلون ، ولا ليذكرهم من أمره مالا يعرفون ، حِذاراً أن تنكسر عزائمهم وتتغيّر بصائرهم ، فتنهزمَ أفئدتهم وتموتَ نجدتهم ، وتختلفَ كلمتهم ، فقال الله عز وجل « إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً » حتى قالت طائفة منهم لأهل المدينة « يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا » وقالت طائفة أخرى : يارسول الله إن بيوتنا عورة ، فأذن لنا . يقول الله تعالى : « وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً » فبيناهم على تلك الحال قد أجمعت العرب بتفريقهم فى الجبال ، وتقسيمهم بالقِداح ، وَأخْذهم بالأيدى ، إذ قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما يُنبِّئهم به من علم الغُيُوبِ ، ويبشّرهم به من أمر الفتوح ، « إن الله سينصركُم على جمع الروم ويغلبُ لكم جنودَ فارس فيهزمُ لكم جنودَهم ويُورثكم قصورَهم ويستخلفُكم فى الأرض من بعدهم ويبدِّلُكم من بعد خوفِكم أمْناً » وعْداً صَدّقه الكتابُ ، وبشارةً نطق بها الوحى ، فقال « وَعَدَ اللَّهُ

الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا » فقال أقوامٌ وأناسٌ ارتابوا حين تضايقت الحال ، وتزلزلت الأقدام ، وطارت القلوب ودارت العيون ، وأشرف الموت « مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً » أيعِدُنَا هَزِيمَةَ جموعِ الأحزاب ، وَفَتْحَ قصورِ الشأم ، وغَلَبَةَ جنودِ كِسْرى ، وقد سالتِ القبائل علينا من كل جانبٍ ، وأحدقَ الموتُ بنا من كل مكان ، فبقِينا فى مَسْغَبَةٍ من الجوع ، وَمَجْهَدَةٍ من الخوف ، وَضَنْكٍ من الحال ، مقهورين مقموعِينَ ، وقالت الخاصة من المؤمنين : حين عاينوا الجموعَ من المشركين وذكروا ماخبَّرهم الله من تحزبهم عليهم ومسيرِهم إليهم « هٰذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيماً » فبينا أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم فى مضايق تلك الحال . وشدّة ذلك الخصال . وعمومِ تلك البلايا الباهظة . والأمورِ الفادحة . التى قد أخذَ بأنفاسهم غمُّها ، وبلغ مجهودُهم

كربها رافعين إلى الله عز وجل أيديهم يقلبون فى السماء أعينهم إذ أرسل الله على تلك الجنودِ الكثيرة والجموع العظيمة والأحزاب المقتدرة ريحاً من الأرض وجنوداً من السماء ، فقطعت الأبنية ، وطيّرت الأمتعة ، وسفت التراب فى العيون وقذفت الرعب فى القلوب ، فولّوا مُدْبِرين ، وخرجوا منهزمين لا يلوى والدٌ على ولد ، ولا مولودٌ على أحد ، أمرٌ صدّق الله فيه قولَه ، وأنجز به وعْدَهُ ، وهزم الأحزابَ وحدَه ، وذكّر المؤمنين نعمتَه فيهم وعرّفهم منّتَه بهم فقال « اُذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا » وقال عز وجل : « وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً » ما كان الله عز وجل ليقتصّ على المسلمين فى أنفسهم ، إلا ما قد رأوه بأعينهم .

لولا أن هذا مالا يُنكره عقلك ، ولا يدفعه نظرك ، لما

جادلتُك بالكتاب ، ولا نازعتُك بالتنزيل ، وإنى لاترك من آيات النبىّ صلى الله عليه وسلم وعلامات الوحى ، ما هو أعظمُ من هذا وأبين وأجلُّ وأوضح ، ولكن ليس لى أن أُحاجّك من آيات القرآن إلا بما عليه شاهدٌ من بُرْهان ، ومخبر من بيان ، لا يستطيع عقلك رَدًّا له ، ولا قلبُك جَحْداً له ، وكيف ينبسط لسانُك ، أو يجترئ قلبك أن يقول : إن محمداً صلى الله عليه وسلم أخبر أصحابَه بالكذب وهم يعلمون ، فاقتصّ عليهم من أمورهم مالا يعرفون ! لا ! ما يسوغُ لك ولا يَجْمُل بك ، ولا يُقْبل منك أن محمداً صلى الله عليه وسلم يقوله من تلقاء نفسه . كيف ، أما كان يخافُ أن يكذّبَه أَصْحَابُهُ ، وتنتقلَ أحوالُه ، وتنتقضَ أمورُه ، لعمرُ الله لو وصفتَ بهذا مَنْ لا يُعْرَف بفضل ولا يُنْسَب إلى عقل لما كان سائغاً لك ولا جائزاً منك ، فكيف تصف به من يُرْفعُ عن الناس قدرُه ويفضُلُ عليهم عقلُه . وتُقرُّ أنك لم تر فى الدنيا أحداً صَنَعَ (ما صنع) وبلغ ما بلغ : فأيّتُما آيةٍ فيما اقتصَّ عليك أميرُ المؤمنين أعظم أو بينةٍ أعجب أما كان يُتْلَى على المؤمنين فى الكتاب من اجتماع قبائل

الأَحزاب بجنود عظيمة قبل اجتماعهم بسنين كثيرة ؟ أم ما كان يُنَادِى به القرآن من الهزيمة لهم ، وينطق به الوحى من الفتح عليهم ، أم قول النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه « إن الله عز وجل يُؤَمِّنُ خوفَكم ويُعِزُّ نصرَكم على الأُمم » وهو على تلك الحال ، ثم نَجَمَت الأمور على ما قال ، أم عسكران مطابقان ، وجيشان متقابلان ، باتت الريح تحوس أحدَهما حتى انهزموا ، وبات الآخرون منها فى عافية وغَفْلةٍ حتى أصبحوا ، فأحسن النظرَ فى أمرك والتَّثَبُّتَ فى دينك إن شاء الله .

واعلم أن من أعظم الآيات وأَبين الدلالات على نبوَّة محمد صلى الله عليه وسلم وحقه وأَن ليس يتقوّل شيئاً من تلقاء نفسه : أنه قال فى عُنْفُوان أمره « ان الله عزّ وجلّ سَيُظْهِرُ دِينِى على الدِّين كلِّه » وجاء مع ذلك بأَثَرَةٍ عن ربّه فى كتاب مخطوط وتنزيل محفوظ . فأىّ أمرَيه لك أدلّ أَوْ أَيّهما عندك أَعجب . إذ كنت بنبوته مصدِّقا ، ولرسالته محققاً : الخبرُ الذى أَخبره أم الفعلُ الذى صَدَّقه ؟ لئن نظرت بعقلك ، وقلت فى نفسك كيف تَرَقَّت إلى هذا نيته ، وارتفعت نحوَه هِمَّتُهُ ، أَم كيف

امتدت إليه فِطْنته ، وقَوِيتْ عليه رَوِيّته ؟ بل كيف دعته إليه نفسه وشجَّعه عليه قلبه ، ودخل فيه طَمَعه وطاوعه فيه لسانُه ، وهو يذكر جنودَ كسرى ، وجموعَ الروم ، وملوكَ الترك ، وملوك الشرك ، وقُيُولَ اليمن ، وصناديدَ الأمم . إن هذا لعَجَبٌ ، ولا سيما إذا لم يكن فى إرث ملك قاهرٍ ، ولا كَنَفِ عزٍّ غالبٍ ، ولا معدِنِ علمٍ سالف .

ولئن أعدتَ النظرَ وكررت ، فقلت : كيف وافق خبرُه أثرَه ، وكيف صدَّق فعلُه قولَه حتى غلَبَ الشرقَ والغربَ ! إن هذا لعجبٌ ! وأعجب من هذا أمرٌ يدلُّك أمير المؤمنين عليه ، ويهديك إن شاء الله إليه ، لو قلتَ لأهل مملكتك ومَن قِبلك من أمتك : هل بلَغَكم أو تقرَّر قِبَلَكم ، أنه كان فى الدهر الأول ، والعصر الخالى أحد مثل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدأتِ الأمورُ به مثلَ حاله من الوَحْدة والضَّعْف والذِّلة والقِلّة ، وصَدَرَت الحالُ به كفعاله فى الغَلَبة والمَنعة ، والقهر والظهور ، وغير ذلك ؟ لقالوا : لا .

ثم أنت لا تُؤمن بمقالته ، ولا تُقِرُّ برسالته ، إلفاً لدينك ،

وضَنًّا بملـكك وطَمَعًا فى قليلٍ من الدنيا قد نعاه الله إليك ، ورغبةً فى صُبَابةِ عيشٍ غيرِ باقية فى يديك ، فهذا عَجَبٌ .
وأعجب من هذا إمرٌ يَقفُك أميرُ المؤمنين على نور حقه ، ويُوضح لك إن شاء الله بيانَ أمره، أصبحت العربُ طُرًّا والأممُ جميعا فى محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثةً لارابعَ لهم ولا مَخْرَجَ للحق من بينهم ، رجلٌ مصدِّقٌ به من المؤمنين ، ورجل مكذِّبٌ به من الـكافرين ، ورجلٌ شاكٌّ فيه من المنافقين .

فأما الشاكُّ فلمَّا قيل له أخرجتَ نفسَك من الحق ، وأبرأتَها من الصواب ، وأقررتَ عليها بالخطأ ، لقولك : لابد أن يكون الحقُّ فى التصديق أو التكذيب ، ولستَ على واحدٍ منهما اعتزل عنها .

وأما المـكذِّب فلمَّا قيل له : أنت مُنكرٌ والمنكر ليس بمدَّع ، ومن لم يَدّع لم يَلزَمْه بيِّنةٌ ولا يسأل عن حجة ، اتبع صاحبه ، وأيمُ الله على ذلك ، لوسُئل هذا المدّعى عن بيِّنته وكَشْفِ حُجَّته ، فقيل له : من أين عَرَف قلبُك ، وأيقنتْ نفسُك إيقانًا لا يخالجه شكٌّ ، ومعرفةً لايشوبُها ريبٌ

ولا ينازعها شُبْهة ، أن محمداً صلى الله عليه وسلم ليس برسول ، لَمَادَرى ما يقول ، لأنه لا يستطيع أن يتقوّل على الرسل ، ولا أن يتَكَذّبَ على الكتب ، فيقول قد أخبرالله فيها أنه لا يبعث نبيًّا ، ولا يُنزِل وحياً فى كتاب مسطور بعد التوراة والانجيل والزبور ، بل قد يجد أهلُ الكتاب فى أقاويل رسلهم وأخابير كتبهم ، أن الله تبارك وتعالى ينزل كتاباً جديدا أو كلامًا حديثاً ، بعد خراب بيت المقدس فى آخر الزمان . ولم يُنزِلْ بعد ذلك كتاباً إلا القرآن .

وأما الرجل المصدّق بمحمد صلى الله عليه وسلم فقيل له : أمّا أنت فقد أدعيتَ . والمدّعِى يُسأل عن الحجة ويُقْبل منه البيّنةُ ، فما بيِّنتُك ومن يشهد لك ؟ فقال : ألم تقولوا : إن الحقّ لا يخرجُ من بيننا ، ولابد أن يكونَ مع بعضنا ؟ قالوا بلى ! قال : فأيّة بيّنة أحقّ وأعدل ، وأى شهودٍ أزكى وأفضلُ من شهادتكم بسقوط صاحبِيّ وثبوت الحق من بعدهما فى يَدَىّ ؟ قالوا : إن الأمْرَ لَكَمَا تقول ، ولٰكنّ البيّنةَ أشفَى للصدور ، فأقام بينةً من الكتاب ، وشهودًا من الوحى ،

وآياتٍ سوى ذلك عظامًا ، وبيّنات عوَامّ ، من كلامٍ لا يَقْدِر عليه الخَلْق ، وصِدْقٍ لا يكون إلا من قِبَل الرب ، شبيهًا بما أورده أميرُ المؤمنين عليكم ، وكَتَبَ به فى صَدْر كتابه هذا إليكم ، مما قد تشهَدُ له قلوبُ الأُمم ، ويُزَكِّيه فِعالُ العرب .

فامَّا أقام بيّنتَه ، وثبتتْ حجّتُه ، ووَجَب حقُّه ، وقُضِىَ به له ، قيل له : وكيف توسعت الأمور عليك ، وضاقت المقالة لك ، أن تقول : إن الله لا يبعث نبيا بعد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا وحيا ينزل غير القرآن ، فأبطلت الكتب المحدثَةَ وأكذبت الوثيقة ، ولم تترك وحيا غير القرآن ، ولم يجز للنصارى أن تقول : لا نبىَّ بعد عيسى عليه السلام ، ولا كتاب خلف الانجيل ، وعن ذلك من أخبار الكتب ما قلنا كل متنبىء بعد نبينا كذاب ، فشاعت وجازت الحجة ، ووضح العذر .

وأما النصارى فيجدون فى أواخر كتبهم ، وأقاويل رسلهم ، أن الله عز وجل ، يبعث نبيا حديثا ، وينزل كتابا جديدا ، فليس لهم أن يكذبوا نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا أن يردُّوا كتابًا .

فهؤلاء الثلاثة : أما الشاك فسقط ، وأما المنكر فبطل ، وأما المصدِّق فثبت ثبوتا ليس فيه مدخل شبهة ولا موضع لحجة ، ولا معلق لمنازعة ، وذلك أن المنكر لوجوب حقه والشاك فى ثبوت صدقه لايجدُ بُدًّا من أن يُنْحى الصدق عن الخلق ويخلى الدنيا من الحق ، وهذا قول المكذبين بربهم الشاكين فى بعثهم فأحسن النظر فى معانيه ينكشف لك عما فيه إن شاء الله .

ومن أبينِ آياته وأدلِّ علاماته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ووسع له فيما صدر إليه : أنه لما أخبرتِ النصارى واليهودُ أنهم لم يَجِدوا مُحَمَّدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى التوراة والانجيل موصوفاً مكتوباً ، تجمَّعت العلماء منهم ، وتدراست الكُتُبَ فيما بينهم فلمَّا نظروا إلى اُسمه وعايَنُوه بنَعْته ، وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ويستفتحون بذكره على من سواهم (كفرت) طائفة حَسَدًا من عند أنفسها ، وحَجْدًا من بعد ما تَبيَّن لها ، وآمنتْ طائفةٌ تصديقاً بكتابها وخوفاً من ربِّها .

فلعَمْرُ الله لو لا أن الذين آمنوا بحقه وصَدَّقُوا بأمره ،

رأوا صفتَه عِياناً ، وقَبِلُوا نعته إيقاناً ، لما فارقوا أديانهم ، ولا جادلوا إخوانهم ، حتى وقفوهم على أسمه ونَسَبه ، وصفته وعلامته وهم علماء بنى إسرائيل ، وحملةُ الانجيل : من أهل الكتاب الذين احتجَّ الله عز وجل بهم على العرب ، فقال عز وجل : « أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ » ولعمرُ الله إنها لآيةٌ عظيمةٌ ، وحجةٌ بليغة . ذكرها الله فى كتابه ، وجعلها على العرب من بيِّناته . فقال لهم : « قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا » يقولون . وَعَدَنا أن يُرسل رسولاً . فقد أرسله وحَقَّقَ قوله ، وصَدَّق وَعْدَه ، واُحتَجَّ النبى صلى الله عليه وسلم بذلك وذَكَره ، ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم لِيُجادِلَ ويحتَجَّ فى أمرهم بكذبٍ وباطل ، ولم يكن ليقول للنصارى واليهود ، فيما ذكر الله من صدق الموعود . إنه فى التوراة والإنجيل مكتوبٌ موجود . إلا وهو من ذلك على حقٍّ يقينٍ ونورٍ مُستبين ، وكيف كان يستشهد من التوراة والإنجيل

بكذب . ويتقوّل عليهم الباطل مع حرصه على تصديق أهل الكتاب ليستدعِيَ به إيمان أحياءِ العرب . أمَا كان يعلم أنه إذا قال لهم إنه موجود فى مَثَانِى كتبهم ، وسُمِّىَ على أفواه رُسُلهم فلم يجدوا خبره يقينا ، ولا وصفه مستبينا أنهم سيُدْبِرون عنه إدبارا تزداد به العرب نِفارا . إلا أن يقولوا خطأً من علمه ، وهواء من خبره ، فكيف لم يخط إذاً فى كتبهم حرفا غيره ، ولم يخالف منها شيئاً سواه . سبحان الله ! لقد أكثر المؤمنون العجب من ذهاب الأساقفة بكم ، فأنتم إن تنكروا ما يقولون لكم — مما ليس لذى لبّ أن يأذن له أن يؤمن به — ولا أن ينبذ إليه سمعه، يقولون: إن أنبياء الله ورسله المبعوثين بالرحمة إلى خلقه ، لطفت النبوّة منهم ووقعت الأخبار المنزلة عليهم على صائر الأمور ، وغوامض الخطوب . فسار الناس عليها ، وأشاروا لهم إلى طابها فهى مكررة فى مثانى كتبهم ، و بطون صحفهم ، وأقاويل رسلهم وتركوا من كلام الله النبأ العظيم ، والأمر الكبير ، والذكر الحكيم الذى ملك آفاقَ الأرضين ، واستفاض على جميع العالمين ،

لم يذكروه بخير يأتمرون به ، ولا بشرٍ ينتهُون عنه ، كلا .
ما ترك الله على هذا خَلْقهُ ، ولا بهذا وَصَفَ تبارك وتعالى
نفسَه ، إنه لأرحم الراحمين وأحكم الحاكمين .

ولئن رجعت إلى قلبك ، لتدوَّنن فى نفسك : لعمر الله
لو كان هذا الأمْرُ الذى طلع طلوعَ الشمس وامتدّ امتدادَ النَّهَار
فبلغ مشارقَ الأَرْض ومغاربَها وسُهُول الآفاق وحُزونتَها ،
حقًّا وصدقاً وعدلاً ، لبَشَّرت الكتبُ به وتنبأت الرسل عليه ،
ودَعَت النُّذُر إليه ، تزيينا له وترغيبا فيه ، وأمراً به ، ولو كان
ضَلالةً وجهالة وعَمَايةً ، لتقدَّموا فى التحذير منه ، والتزهيدِ
فيه ، والتثبيطِ عنه فيدعو ذلك إلى أن تنظروا إلى كتب الأنبياء
وأقاويل الرسل ، فأيمُ الله لئن طلبتَ لتجِدَنّ ، ولئن اجتهدت
لَتُوَفَّقَنَّ ، وما الصواب بممنوع ، ولا الخيرُ بمحظور . ولقد
كانت العلماء بالكتب والبصراء بالتأويل تجده ، ولكنها
كانت تكتُمُه بتحريف كلامِ الكتب عن مواضعه ، وصَرف
تأويل الحكم إلى أشباهه حَسَدًا من عند أنفسهم ، وبَغْيًا بعد
ما تبيّن لهم ، ثم لقد اقتدَيْتم بهم وجَرَيتم معهم وأخذتم عنهم

بلا حجّة لكم ، ولا قوّة معكم إلا الأقتداء بالآباء والأتّباع للآثار . فاتقِ الله في نفسك . واتّهِم الرجالَ على دِينك ، ولا تجعَلِ النظرَ إلى غيرك من ذوى الشك في القلوب ، والفسخ في[1] ... والتُهَم في التعطيل الذين لعلهم يَعرِض لآرائهم ويقع في أوهامهم أن يقولوا : فاملّ مايتلو عليكم أميرُ المؤمنين من آيات القرآن ، ويقرع لكم من حجج الوحى شئ زيدَ فى المصاحف بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا مالا يحتمله عقل صحيح ولا نظر قوى ، وذاك الشاك فى شهادات الرجال ، متفقة من بلدان وأمصار مختلفة ، وشعوبٍ وقبائلَ متفرّقة ، ليس يدعوهم إلى ماشهِدوا دِينٌ ، ولا يحملُهم على ما أتّفقوا عليه دنيا ، لايستقيم له أن يؤمن بما لم تدركه جوارحه وتُحيط به حواسّه ، لاسقاطه حجّةَ الإجماع وإبطاله شهادةَ العوامّ ، واتِّفاقُ المختلفين دلالةٌ واضحة ، فهو سائلكم عن الحجّة فى الانجيل والبيِّنة على التوراة شكًّا فى الربّ وتكذيباً بالرسل ، فما كنتَ قائلَه له أو مُجيبَه به فى كتابكم ، فأجِبْه بمثله فى

(١) كذا فى الأصل وظاهر أن كلة بعد (فى) سقطت من الناسخ سهوا .

كتابنا ، وإن كانت الأحوال منها غير معتدلة ولا مؤتلفة ولا مرتفقة ولا واحدة ، تعتدل حالاهما ، ويتفق أمرهما ، من كتابكم مالم تنزل به الملائكة وحيا كالقرآن ، ولم يشافه المسيح به أصحابه باللسان ، إنما كان فعلا أثبت من بعده ، ولم يكن الفعال موضوعا بعده ،وليس يكتب أمير المؤمنين بهذا إليكم شكًّا فيه ، ولا يورده عليكم مرية به .

واقد علم أميرُ المؤمنين أن كُتُبَ الله عز وجل محفوظة ، وأن حُجَجَه مخزونة، لا يُزَاد فيها على تقَادم عهد، ولا يُنْتَقَصُ منها على تقَارُب دَهْر، وأن ذلك ثبت فى الانجيل من بعد عيسى عليه السلام ، وأنه قال لمن اجتمع إليه من الحواريين « بالوحى أُكلِّمكم والأمثالَ أضربُ لكم » فأمثالُه المضروبة كلام . وكلامه الرائع وحى ، ولكن مابالُ الشكِّ يُنْفَى عن كتابكم . بحجة الاجتماع عليه عندكم ، وهو على ما وَصَفَ أَميرُ المؤمنين لكم ، وسيانِ فى تنزيل كتابنا ، وقد أدرك شهادة دينه . إما ماقربا من عهده ومعاينة وحيه واجتماع على حفظه . هذا حكم مختلف .

فقل للذين يشكون فيه ويرتابون به : أوقعوا أوهامكم على حالات الأوقات التى تعرفون، ووتها[1] بطبقات الرجال الذين يتهمون .

فان قالوا : أما طبقات الرجال التابعين ، وحالات زمان أمير المؤمنين فذلك ما لا يَسُوغ الأقاويلُ فيه ، ولا تدخُلُ الشبهة عليه ، لانتشار القرآن وامتداد الزمان ، وكثرة الحَمَلة لآياته فيهم ، والحَفَظَة للسانه منهم ، ولكن الدين الذى نزل به القرآن ، وقبض النبى صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم ، وكيف بوقوع تهمة أو دخول شبهة على أقوام (لبث) النبى صلى الله عليه وسلم عشرين حجَّةً فيهم يتلو كتابَ الله عز وجل فى كل عام عليهم ، حتى حَملوه فى صدورهم ، وحَفِظوه فى قلوبهم ، وكَرَّر فى آذانهم مسموعا وأُمِرّ على أبصارهم مكتوبا ، وجَرَى على ألسنتهم متلوًّا ، وجَمَعه كثيرٌ منهم محفوظا ثم تَوَارَثوه فيهم وتداولوه فيما بينهم حتى أدَّوْه إلينا ، وأوفوا به عندنا من مواضع متفاوتة وأصناف وأجناس متباينة . على كلمة واحدة !

---

(١) كذا فى الأصل .

فان قالوا : اتفقت الرجال على الزيادة فيه وأمكنت الحالُ من الحمل عليه ، فليعلموا أن المؤمنين المخلصين ليسوا فى الزيادة متهمين ، وأن المنافقين الملحدين ليسوا على ذلك بقادرين ، وكيف يقدِر القليل من المنافقين على مخالفة الجمع من المؤمنين بعد ما حَفِظَتْه قلوبهم ، ووَعَتْه أسماعُهم . ثم تُـكتَم القدرةُ لهم وتُسْتَرُ الزيادةُ منهم ! هذا ما لا يقدِر عليه منافق ، ولا يطيقه مُشرك ولا فاسق ، وأيم الله أن لو قدَرت اليهودُ على الزيادة فى الإنجيل لأفسدوا كتابكم وغيّروا دينكم ، ولو جعل الله المنافقين على الزيادة فى كتابه قادرين لبدّلوا ديننا وغيّروا حالنا ، ولو كانوا لذلك مُقْرِنين وعلى ذلك مقتدرين ، لكان الذى كَتَب به أميرُ المؤمنين إليكم ، وأورده من حجج الله عليكم أولى ما تلقون ورأس ما تقترفون ، فلا تُلْقِينَّ إلى ما قاله (المضل) سمعَك ولا تُنْصِت الدهرَ إليه ذهنَك ، فانه اتخذ الشّك فى كتابنا ذَرِيعةً إلى الإخلال بكتابك ، وسُلّماً إلى الشكّ فى دِينك وعِلّةً فى الطعن على مِلّتك ، ولكن قل لأولىّ الشيطان : أنّى وَقَع لك إيمان بأنك من ولد فلان ؟ أتقول : شهِدت الجِيرةُ واجتمعت العَشِيرة واتّفق المختلفون فذهب

الشك وزال الريب ووقع الإيقان من غير العيان ؟ صدَقتَ !
فما بال الشكّ فيما أجتمعَت العامّة على القول به واُتّفقت الجماعةُ
فى الشهادة عليه من آيات الكتب وبيّنات الرسل ، وإن
ذهب بهذا عن أمره ، وباعده عن شبهه ، فتؤمن أنه من نطفة
خُلِق ، ومن رَحِمٍ خَرَج ، فان جحدوا بى ألا يؤمن بما
لا يرى فقل : أرأيتَ لو كنت سميعاً أعمى ، أكنتَ تُؤْمن
بشىء مما فى الدنيا : من سماء أو هواء أو بحر أو سبع أو أرض
أو جبل أو شبه ذٰلك مما لم يدركْه العِيان ولم يقبلْه إلا عن
الناس ؟ فان قال نعم فقل : فهل لك إلا بالاجتماع الكفر
بالرب ، وما لدائه دواء غير الصلب ؛ فَاُتّق اللّٰه إذ كنت إمامًا
وقائداً لأهل ملكك لا تقدهم إلى النار فتحمل أوزارهم مع وزرك

فانّ من أبْين آيات الوحى ، وأدلّ علامات النبيّ صلى اللّٰه
عليه وسلم أنه لا يبتدع فى الدين أمْرًا من تلقاء نفسه ، ولا
يتقدَّم فى الأُمور بين يَدَىْ ربّه . واللّٰه أظهرَ فيما أنزل من
الكتاب أُموراً كان يحسبها صلى اللّٰه عليه وسلم مستورة ، فقال
تأديبًا له ، وإخباراً لمن آمن من بعده « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ

اللهُ عليهِ وأنعمتَ عليهِ أمسكْ عليكَ زوجكَ واتّقِ اللهَ وتُخفي في نفسكَ ما اللهُ مبديهِ وتخشى النّاسَ واللهُ أحقُّ أنْ تخشاهُ» وقال : «عبسَ وتولّى أنْ جاءهُ الأعمى وما يُدريكَ لعلّهُ يزّكّى أوْ يذّكّرُ فتنفعهُ الذّكرى أمّا منِ استغنى فأنتَ لهُ تصدّى وما عليكَ ألاّ يزّكّى وأمّا منْ جاءكَ يسعى وهوَ يخشى فأنتَ عنهُ تلهّى كلاّ إنّها تذكرةٌ» وقال تعالى : « ولولا أنْ ثبّتناكَ لقدْ كدتَ تركنُ إليهمْ شيئاً قليلاً إذاً لأذقناكَ ضعفَ الحياةِ وضعفَ المماتِ ثمّ لا تجدُ لكَ علينا نصيرًا » وقال له حين صرف قلبه عن بيت المقدس إلى البلد الحرام حين سكنت القلوبُ إليها ، وأنِست النفوس بها : « ولئنِ اتّبعتَ أهواءهُمْ بعدَ الّذي جاءكَ منَ العلمِ مالكَ منَ اللهِ منْ وليٍّ ولاَ نصيرٍ » وكانت القبلة التى صرفه الله إليها وأمَرَه بها عظيمةً على المنافقين واقعةً بخلاف الكافرين ، كبيرةً إلا على الذين هَدَى الله من المؤمنين ، فانهم قالوا : إذا اختلفت القبلتان وافترقت الجهتان ، كانت الطاعةُ فيهما

واحدة لا اختلافَ فيها ولا افتراق عليها ، وكيف تختلف الطاعة من رجلٍ بَنى بأمر الله عز وجل ثم هَدَمَ بوحى الله .

فان قلتَ : إن الله حَوَّله عن أفضل القبلتين وأقوم الجهتين ، فلا سواء فى الفضل البيِّنِ والخير السرّ ، قبلة سلط الله عليها الكافرين ولم يمنَعْها من الظالمين ، وقبلة مَنَعها بجنود من عنده ، وعصَمَهَا بغير ما حَوْلٍ من خَلْقه ولا حرمةٍ يَدَّعِيها أحدٌ ممن فيها ، فأرسل طيراً أبابيل تَرْمى الأعداءَ بحجارةٍ من سِجِّيلٍ فجعلهم كعَصْفٍ مأكول . فان تقلْ : هذا خَبَرٌ نُنْكره وقول لا نعرفه ، فبأيِّ حديثٍ بعدَ هذا تؤمن ؟ وتَشْهد لله عز وجل أنه من قِبَله وأنتم تعلمون أنه أنزل الله عز وجل سورةَ الفيل على قوم أدركه منهم بشر كثير .

فان قلت : إن محمداً صلى الله عليه وسلم خَبَّرهم بما عاينوه وأدركوا خلافه نَقُلْ : إنه أراد أن يفرِّقهم عنه ويوحشهم منه ، وأحب أن يرموه بالكذب ويقذفوه بالحمق ، ويصموه بالجنون ويظنون به الظنون ، كلا ! ما كان نبى ولا غير نبى ليجاهد أقواما بخلاف مارأت أبصارهم وشاهدت آباؤهم ، فيخبرهم

بخلاف ماشهدوا ، وتكذيب ماعاينوا ، فلا تكونن فى هذا من الممترين ، ولا بأمر الفيل من المكذِّبين .

فلعمر اللهُ لوكان من أمر النبى صلى الله عليه وسلم ماتُلْحِد أنت وقومُك إليه لما قام معه رجلان ولا اختلف فيه سيفان ، وان فيما صنَع الله عز وجل بالفِيل وأتباعه ، دلالةً على قبلة الله وأنبيائه ، فاتق الله ، فقد شرح أميرُ المؤمنين علاماتِ النبى صلى الله عليه وسلم وكَشَفَ الأغطية لك عن النُّور بآيات الوحى فان مالت الأهواء بك ، وغَلَبت الأساقفةُ عليك ، وحضرك الرؤساء الذين يجعلون مع الله آلهةً أخرى بلا حجةٍ عندهم ولا سلطانٍ أتاهم فقل : أنبئونى عما اُجتمعَت عليه النّصرانية وذهبتْ إليه بهم المعانى من تشقيق الكلام وتصريف الكتب : أحرُوفٌ تتَعسَّفُونها أم لغة تعرِفونها ؟ فان قالوا : إنهم بغير لغة يتكلَّمون ، فهم إذاً قوم يلعبون ، وإن قالوا: إنهم يتكلَّمون بلغةٍ معروفة ومعانٍ معلومة . فقل: أخبرونى عن قولكم . أب وابن . أهما ما تعترف العقول من المنطق ويقع فى القلوب من المعنى أم لا . فان قالوا لا ، ليس ذلك بالذى تذهب أوهام العباد إليه ، ولا بالذى تقع الحقائق فى الآباء

والأبناء عليه ، إنما هو كقول الله عز وجل فى التوراة لإسرائيل (بكرى) لا يعنى ولادةَ الرحم ، وكقول المسيح عليه السلام للحواريين (أنتم إخوتى) لا يعنى أُخُوَّةَ النسب ، فذلك قول لا يجدون معه بدًّا من أن ينسبوا عيسى عليه السلام عبداً ، وإن قالوا : بل هو ما تجرى به ألسن العباد ، ويقع فى قلوب الخلق من الولادة المعروفة والأبوّة المعلومة ، فليخبرونا متى كان الأب والداً ، والابنُ مولودا أقبل الولادة أم بعدها ؟ فان قالوا قبلها رجعوا عن القول الأوّل بتثبيت الأبوة . إلا أن ذلك ليس بالشىء الذى تذهب إليه الأوهام ، ولا بالمعنى الذى يقع فى قلوب الأنام .

ولا بدّ إذا سقطت الولادةُ المعروفة وبَطَلت الأبوّة الموجودة ، أن يقولوا إن الأب والابن أُسمان عَلَقا على غير معنى ، ونَسَبانِ أضِيفا إلى غير حق ، فيقرّون أن عيسى عليه السلام خُلِقَ مثلَهم ، وأنهم يتكلمون بغير لغة أحدٍ منهم .

وإن قالوا : إنما كان الابن مولودا والأب والدا بعد الولادة ، فقد أقرّوا بأن الأبن حَدَث مخلوق وعبد مربوب ،

لقولهم إنه لم يكن حتى وُلِدَ ، ولم يُولد حتى خُلِق . وقل لمن يقول الزورَ العظيم ، ويقذِف بالإفك المبين : أليس الأبُ أبًا على حياله ولم يزل ، والابن ابنًا نُجل وروحُ القدُس كذلك ؟ فان قالوا نعم ، فقد أقرُّوا بأنهم ثلاثةٌ متباينةٌ ، وقعت عليهم ثلاثة أسماء متفاوتة ، وتركوا قولَهم إنهم ثلاثةٌ أصلهم واحد .

وإن قالوا الأب والابن وروح القدس واحد ، ولكنَّ بعضَه أبٌ وبعضَه ابن وبعضه روح القدس ، فقد دخلوا فى التحديد الذى هو عيب عندهم ، وقالوا فى التبعيض بما هو كفرٌ قِبَلهم ، وإن قالوا ليس مُبَعضا ، ولا مُجَزأ ، ولا محدودا ولا ثلاثة متباينين ، فاذاً هم قوم يلعبون ، يقولون الأبُ ابنٌ ، والابن أب ، والوالد مولود ، والمولود والد ، والكبير صغير ، والصغير كبير ، والقليل كثير ، والكثير قليل ، وهذا من أبين المحال وأخلف المقال ، وليس من المنطق مالا يوجد فى لغة عرب ولا عجم ، ولا لسان أمة من الأمم ، وإنما أرسل الله عز وجل كل نبيٍّ بلسان قومه ليبيِّن لهم ، فيُضلُّ الله الظالمين ، ولولا ذلك لَمَا فهمت الأممُ مذاهبَ أقاويل الرسل ولا معانىَ

أحاديث الكتب ، فلا تُطِع الذين يلعبون بأنفسهم ، ويتكلّمون بغير لغتهم ، ويقولون : الثلاثةُ واحدٌ ، والواحد ثلاثة ، وهذا محالٌ في مَجارى المَقال ، ومعانى الفعال .

لعمرُ الله لئن اتَّهمتَ عقولَ الأساقفة على دينك ، واهْتَمَمْتَ بالنظر في توحيدك ، لتَعلَمَنَّ أن الواحدَ لا يكون ثلاثةً وأن الثلاثةَ لا تكون واحدا ، إلا على وجه ماله ثانٍ يقول به ، ولا منه مَخْرَجٌ تستريح إليه ، فألقِ نحوَه سمعك ، وأنصتْ إليه فهمَك ، فان أمير المؤمنين واصِفُه لك ، وليس واقعاً إلا على المخلوقين ، ولا لازمًا غيرَ المحدودين ، ولا داخلاً على رب العالمين وهو أن يكون الشىء أصلُه واحد وأجزاؤه كثيرةٌ ، من نحو الانسان ، وهو أصْل يجمعه اسمٌ ، وله أجزاء تلزمها أسماء ، فليس الجزء بالأصل ، ولا الأصلُ بالجزء ، ولكن الجزء بعض الأصل ، فاذا أردتَ الجزء ، قلتَ يدُ الانسانِ ، وسَمْع الإِنسان ، ولولا أنه محدود مخلوق مجزَّأ مبعَّض لما جاز هذا القول فيه ولا دَخَل هذا المثل عليه ، وكذلك الشمسُ : الأصلُ واحد ، وهى شمس ، والأجزاء كثيرة وهو عينُ الشمس وضوء

الشمس وشُعَاع الشمس ودقيقُها وغليظها وحرورها وأعلاها وأسفلها وأشباه ذلك .

فلأن قلت : سمَّيْت كلَّ جزء من الأجزاء على حِياله إنساناً ، وكلَّ جزء من الشمس دون أصله شمسا ، ونسَبتَ فعلَ الأصل إلى بعض أجزائه ، وتركت أن تنسُب الأصلَ فاعلاً ببعض الأجزاء كما تقول بَسَط الإنسانُ بيده ، ومَشَى برجله ، ونَظَر بعينه ، ثم ضربتَ ذلك لله عزَّ وجلَّ مثلا ، وجعلتَ الله له قياساً ، فقلتَ : الأصلُ واحد ، وهو الله عز وجل ، والأجزاء كثيرة ، وهى أب وأبن وروح القدس ، وكل جزء منها إلٰهٌ على حِياله وربٌّ دون غيره لم تجدْ بُدًّا أن تُلْحِقَ اليدَ والعينَ والنفسَ بالأب والأبن ورُوح القُدُس ، فتَكثُرَ آلهتَك ، وتحدِّدَ ربَّك ، وتتركَ قولك إن الله ليس محدوداً ولا مجزَّأً ولا مبعَّضا إلا أن يكون إنما تريد مذاهب الأسماء فتقول المعنى واحد ، وهو الله عز وجل ، والأسماء أبٌ وأبنٌ ورُوح القدس ، فان كنتَ تقول هذا وكنتَ إنما تعبد أسماء فما تجد بدًّا من أن تعبدَ الأسماء كلَّها وتقول إنها آلهةٌ على

حِيالهـا . حتى تقول بأُسم ٍ ارحمنى ، وبثانٍ اغفر لى فاتَّقوا الله يٰأهل الـكتاب ، فان الله عز وجل ليس بأب ولا أبن ولاأُسم ولكن له الْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَى فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فى أَسْمَائه سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

فان أشارت الأساقفةُ إلى بعض الانسان باليد والرجل وأشباه ذلك ، وقالوا ليس إنساناً . فقل لا ، ولـكنه للانسان . وقل هو إنسانٌ بكماله ، وكذلك إن أشاروا إلى بعض الشمس فقالوا : أليس هذا الشمس طالعا ، فقل لا . ولـكنه بعضها . ولو كانت الأسماء التى تقع أبصاركم عليها وتشير أيديكم إليها من الشمس والسماء والهواء شمساً وهواءً وسماءً لـكانت الشمس والهواء والسماء أكثرَ ممـا يبلُغه الإحصاء . ولو قصدتَ بالاجابة لمسالك هذه الأودية . لبطَلَتِ الحجج الداحضة وانقطعت الأقاويلُ المتناقضة ، وسل مَنْ قِبَلَك من أساقِفِ أُمَّتك وشَمَامِسَةَ أهلِ ملَّتك الذين يزعمون أن عيسى المسيح ويرفعونه أن يكون عبداً . على أى شىء وقع اسمُ المسيح من عيسى . على الروح أم الجسد أم على كليهما ؟ فان قالوا : وقع على الروح

نفسه . لأن الروح إلهٌ دون غيره . فقد أقروا بأن إلهَهم
يأكلُ ويشرب ، ويمشي ويركب . لأنهم يجدون ذلك من
فعل عيسى مبيَّنا قِبَلهم موصوفاً عندَهم ، فان قالوا : وقع اُسمُ
المسيح على الجسد بعينه ، فكان الجسدُ هو المسيحُ إذاً دون
غيره ، والمسيحُ اذاً مخلوقٌ عندهم ، والإله إنسانٌ اذاً مثلهم ،
فَلِمَ يعبدُون المخلوقَ ويدعون من خَلَقه وبَرَأه ، وإن قالوا : وقع
الاُسم على الرُّوح والجسد جميعا ، فلن يجدوا مَخْرجًا ولا بُدًّا
ولا مَحيصاً إذا أوقعوا الاُسمَ عليهما من أن يُضيفوا الأعمالَ
إليهما ، فيقولوا : إن الجسد المخلوقَ هو خَلَقهم ، وإن الرُّوحَ
الخالقة قد ماتت قَبْلَهم ، وذلك لما يجدون من ذكر موتِ
عيسى عليه السلام في الكُتُب عندهم ، وفي الانجيل الذي
قِبَلَهم ، وسل مَنْ قِبَلك عن الأب والاُبن ، فقل أيهما أعظم
وأيهما أصغر ، فان قالوا : الأب أعظم والاُبن أصغر ، فقد
جعلوهما متباينين ، وإن قالوا : هما واحدٌ وكلاهما عظيم ، وليس
الأب بأعظم من الاُبن ولا الاُبن بأصغر من الأب ، فقد
نُقض حينئذ جوابُهم ، وأكذب المسيحُ عليه السلام كلامَهم

حيث يقول «لَوْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي لَفَرِحتُم حَيْثُ أَذهَبُ إِلَى إِلٰهِي فَانَّ إِلٰهِي أَعْظَمُ مِنِّي» فلم يَقل أعظمَ منى ، إلا وهو مقرٌّ بأنه أصغرُ منه ، وسلهم عن قول المسيح «أنا أذهب إلى إلٰهى وإلٰهكم» فقل : مَنْ هذا الإلٰهُ الذى ذهب عيسى إليه صلى الله عليه وسلم : إلهٌ فى السماء متباين منه منقطعٌ عنه ؟ فهما إذاً اثنان متباينان ، أم إلهٌ كان به مُتَّصلاً وكانا جميعاً واحداً ؟ فكيف إذاً يجوز له أن يقول إذاً أذهب إليه ! إلا أن يقولوا : إن بعضه ذهب إلى بعض ! وهذا مما لا يجوز عندهم فى صفة الربّ عزّ وجل .

وسَلْ مَنْ قِبَلَك : أخَرَج المسيحُ من بطن أمه مريم بكماله حتى كان البطن منه فارغا ، وكان هو منه بكماله خارجا ؟ فان قالوا : نعم ، فقد انكسر قولهم إن الله بكل مكان ، وإن قالوا : لم يخرُج المسيح ولم يخلُ البطن ، فقد كذَبوا إذاً فى قولهم : إنه قد خَرَج وأقرُّوا أنه قد وُلِدَ ، فتعالى الله عما يَصِفون وتنزّه عما يُشركون ، وسَلْهم لمَ هَبَط عيسى إلى بطن مريم ، وتجسّد باللحم والدم ، فان قالوا : لِيَمْحَقَ الخطايا من الأرض

ويُربِطَ الشيْطَانَ عن الخَلْق ، فقل : كيف إذاً لم يربطه عن نفسه ! وكيف جلاباه من اليهود بصلبه ، ولِمَ سُلِّط على أهل دِينه يُتَّبَعون فى كل شِعْبٍ ويُقْتَلون بكل واد !

وقل للذين يقولون : إن الخالقَ فى كل مكانٍ من السماء والأرض وغير ذلك ، أيهما أعظم ؟ المحيطُ المشتَملُ ، أم المُحَاط المشتَمَل عليه كما يقولون ؟ تعالى الله عما يشركون . فان قالوا : إنما التحم بعضه دون بعض ، فقد حَدُّوا وبعّضوا ونَقَصوا وأُنتقصوا ، وإمّا قالوا فلن يجدوا بداً من أن يقولوا : إن بعض المسيح الذى جعلوه ربهم ، وهو إلٰه عندهم ميت بعضه جِيفة ، وإن بعضه حىٌّ طيب ؛ لأنهم زعموا أنه اُلتحم بجسد حىٍّ فيه رُوح ، فلابدَّ إذاً أن يدخل عليه مايدخل على الأجسام الحية من الخوف والفزع والفرح والعطش وأشباه ذلك ، وهو عندهم كفر عظيم وإفكٌ مبين ، فاتقِ عقوبةَ الله ربك ، ولاتمشِ مُكبًّا على وجهك ، ولكن اُطلبْ واُلتمس وابحث ، فقد قال عيسى عليه السلام فى الإنجيل « من سَأل أُعْطِيَ ، ومن طَلَب وَجَد ، ومن استفتح فُتِـحَ له » .

اجمَعِ العلماء والبصراء الذين عنـدك ، والأساقفة والرهبان الذين قِبَلَك فقل : لأى شىء نَسَبتم المسيح إلٰهًا وجعلتموه ربًا ، ونجد الله سمّاه فى الـكتاب ابنا ، وقد تجدونه قال « إنى أذهبُ إلى أبى وأبيكم وإلٰهى وإلٰهـكم أيضاً » وهذا كلام يحتمل وجهين أحدهما أولىَ به ، وقولٌ لا يحتمل إلا وجهاً وهو الربوبيَّة أم كيف تنظرون إلى كلامه « أذهب إلى أبى وأبيكم » فتُفْرِدونها فى نفسه ، وقد قالها فيه وفى غيره .

فاتّق الله وكن من القائمين بالحق ، الموحّدين للرب . إن أمير المؤمنين قد ضَرَب لك أمثالاً جَمَّةً ، وصَرَف إليك مسائلَ كثيرة ، وبيّن لك من آيات النبى صلى الله عليه وسلم وعلاماتِ الوحى قليلاً من كثير ، واضحا من تفسير لا تمتنع العقولُ من التصديق به ، ولا القلوبُ من الاقرار به .

وسيذكر لك أميرُ المؤمنين من علامات النبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة والانجيل ما يُكْتَفَى به إن شاء الله ، وباليسير منه ، لأن كتب الله عز وجل محفوظة ، وحُجَجه محروسة . لا يزاد فيها ولا ينتقص منها ، وإذا وجدتَ فيها

كلمةً تدلّك على حق وتَهْدِيك إلى رُشْد ، فلستَ واجداً أخرى تَصُدُّك عنه وتشكّكك فيه . إذا تُلِيَ ذلك بالحق ووُضِع على الصدق ، ولكن ضلّت اليهودُ والنصارى بتحريف تأويل الكلام وتصريف تفسير الكُتُب ، وأميرُ المؤمنين يسأل الله العِصْمَة والتوفيق .

من ذلك ماقد شَهِدَ به عيسى عليه السلام عندكم و بيّنه فى الانجيل لكم . إذ قال للحَوَارِيِّين : أنا أذهبُ وسيأتيكم البارقليط روح الحق الذى لا يتكلّم من قِبَل نفسه إنما يقول كما يُقَال له ، وهو يشهد علىّ وأنتم تشهدون لأنكم معى من قبل الناس بالخطيئة ، وكل شىء أعد الله لكم يخبركم به » . وترجمة البارقليط . أحمد : هذا مالاشكَّ ولامريةَ فيه ، وهو الذى يُخبر بما وَعَد الله المؤمنين وصالحى الحوارِيِّين فى القرآن ولستم تجدون ذلك فى التوراة ولا فى الانجيل .

ومن ذلك قول أَشْعَيَا النبى عليه السلام : « قيل لى أقم بطارا ما ترى بخبرى ؟ قال : أرى راكبين بعيرين مقبلين أحدهما يقول لصاحبه . سقطت بابل وأصنامها المنحوتة » .

ولسنا نعلم نبيا ركب بعد موسى صلى الله عليه وسلم بعيرا إلا محمداً صلى الله عليه وسلم كثيراً .

ومن ذلك قول داود عليه السلام : « اللهم ابعث جاعلَ السُّنَّة كى يعلم الناسُ أنهم بشر » يقول كى يتبيّن الناس أن عيسى عليه السلام إنسان . ولسنا نعلم نبيا وضع سنّةً تُنْسَب إليه إلا محمداً صلى الله عليه وسلم . أما عيسى فانه نَصَب سُنَّةَ موسى عليه السلام .

ومن ذلك قول حَبَقوقَ المتنبىء فى زمان دانيال : « جاء الله من السماء والقدّيس من جبال فاران ، وامتلأت من تحميد أحمد وتقديسه ، ومَسَح الأرض بيمينه ، ومَلَك رقابَ الأمم » . وقال أيضاً : « تضىء لنوره الأرضُ ، وتُحْمَلُ خيلُه فى البحر » . فإلى من ينحو هذا القول ، وإلى أين يُذْهَبُ بهذا المعنى ؟ لَئِن ذُهِبَ به إلى غير الذى تحمل خيلهُ فى البحر ، وبدأ من جبال فاران أمره ، وغَلب على الأرض ومسحها ، وملكَ رقابَ الأمم كلها : لقد تركتم الحق وأنتم تعلمون .

ومن ذلك قول داود عليه السلام فى الزَّبُور : « صَدِّقُوا وسَبِّحوا الربَّ تسبيحاً حديثاً سبِّحوا الذى هَلَّلَه الصالحون ،

ليفرَحْ إسرائيلُ بخالقه ويتوب صِهْيُونُ من أجل أن الله اصطفى له أمته ، وأعطاه النصر وسدّد الصالحين بالكرامة يسبّحونه على مَضَاجعهم ، ويكبّرون الله بأصوات عالية . بأيديهم سيوفٌ ذاتُ شَفْرَتين . لينتقم الله من الأمم الذين لايعبدونه ، ثم يقيِّد ملوكهم بالقيود وأشرافهم بالأغلال » . فأيتما أُمّةٍ يكبِّرون اللهَ بأصواتٍ وأذان الصلوات الدائمة وعلى كل شَرَفٍ وعند كل حرب . وأيّتما أُمةٍ كانت سيوفُها ذاتَ شَفْرتين إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم !

ومن ذلك قول أشْعَيَا : « سبِّحوا الربَّ تسبيحاً حديثاً ، ويسبِّحه من آفاق الأرض فرح يكون فى بنى فيار » . وبنو فيار قريش أهل فاران الذى نزل فيه القرآن ، وأيّتما أُمّةٍ تسبّح من آفاق الأرض إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم عندى أكدى

ومن ذلك قول أشعيا : « عبدى الذى وجب به حبى الذى بشرت به نفسى أُفيض عليه رُوحى ، يُوصِى الأممَ بالوصايا ، لايضحَك ولا يُسْمَع صوتُه فى الأسواق ، ويفتح العيون العُور ، ويُسمِع الآذان الصُّمّ ، ويُحْيِي القلوبَ الغُلْف وما اعطيه لا أُعطى غيره ، أحمد يحْمَد اللهَ حمداً حديثا ،

تهليله يأتى من أقصى الأرض ، يجوز الماء بشدة أمواجه ، ويفرح[1] زكورها ، سكانها يحمدون الله على كل شَرَف ، ويكبّرونه على كل رابية » .

ومن ذلك قول داود عليه السلام فى المزمور الخامس والأربعين، يقول الله عز وجل لمحمد فى الزبور: «انصبّت رحمتى على شفتيك من أجل ذلك باركتك الدهر[2] تقلّد السيف على الأمم أيها الجبار على الأمم بالقتل والأسر والسباء بهاك وحمدك أحمد يغلب البرمنك كلمة الحق وذللت لك الأشياء سيفك يحسمه يمينك ونبالك مسمومة ويسقط عند الأمم » . فأى نبى كان على الأمم جبارا ولهم باذن الله قتالا إلا نبينا صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك فى آخر التوراة : « جاء الله تبارك وتعالى من سيناء وأشرف من ساعير واستبان واستعلن من جبال فَارَان ،

---

(١) هكذا فى الأصل .

(٢) فى الأصل : « من أجل ذلك باركل الدهر . واستعنا فى تصحيحها بالكتاب المقدس الذى وردت فيه الجملة هكذا : « وقد انسكبت النعمة على شفتيك فلذلك باركك الله الى الأبد » . أما الباقي فلم نوفق إلى تصحيحه فأثبتناه كما ورد بالأصل .

وجاء عن يمينه ربوات القدِّيسِين » . وتفسير هذا أن الله عز وجل أنزل التوراة على موسى فى طُور سيناء ، وأنزل الانجيلَ على عيسى عليه السلام فى جبل ساعير وهو جبل بالشام ، وأنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم فى جبال فارَان وهى بلاد مكة ، وأنتم تجدون ذلك فى كتبكم مكرّراً وتعرِفونه جميعا بلغتكم .

ومن ذلك قول الله عز وجل لموسى عليه السلام « سأُقِيمُ لهم من إِخواتهم مثْلك أجعَلُ كلامى على فهمه ولا يتكلّمُ إلا بما آمرُه به » . فَمَنْ إخوة بنى إسرائيل إلا بنو إِسماعيل ؟ أمَا تعلم أن لوكان الله عزّ وجل يعنى أحداً منهم لقال لهم : أُقيم لكم نبيا منكم ! .

فان قلتم إنما قال من إِخوتكم ، وهو يريد من أنفسكم ، فهَبْ أميرَ المؤمنين قَبِلَ هذا الخُلْف منكم ووَسّعَ فى هذا المجال لكم ، فكيف تصنعون بقول الله عزّ وجل فى التوراة : « مثلُ موسى فى بنى إسرائيل لايقوم » فهل تجدون من هذا مَخْرجًا ومن الايمان أن المعنى وقع على محمد صلى الله عليه وسلم بدْأً

ألا تسمع قول الله عزّ وجل : « أجعَلُ كلامى على فمه كى يُغنَى به أُمِّيٌّ لايقرأ ولا يكتب » .

أو ليس قد أمر عيسى عليه السلام حَوَارِيِّه أن يقولوا فى صَلَواتهم : « ياأبانا الذى فى السماء تقدس اُسمك » . كيف صار عيسى دونهم اُبنا وصار له دونهم أبا ، وهم يقولون : يا أبانا ! أم كيف لم يُجْعَلْ سليمانُ بن داود إلٰهًا ، وقد قال الله عز وجل لداود : « يُولَد لك غلامٌ يُسَمّى لى وأُسَمّى له » ! ولِمَ لايجعلون إسرائيلَ إلٰها وقد قال الله عز وجل له : « أنت بِكْرى » . بل لِمَ لايُسَمُّون المؤمنين عامّةً والحواريّين خاصة (آلهة) . وقد قال المسيح للحواريين . أنتم إخوتى ، وقد قال فى الانجيل : « أعْطِ كلَّ من آمن بى سلطانًا يُدْعَى له » . وإن كان هؤلاء كلهم للمسيح إخوة أفلا تجعلونهم كلهم آلهة . وكيف يقولون : إن عيسى ابن الله ، وهو يقول فى مواضع جمّة وأماكن كثيرة إنه ابنُ الإنسان فكيف يكون اُبن الإنسان اُبنَ الله؟ ومتى كان ذلك ؟ لئن قالوا : إن عيسى لم يزل ابنَ الإنسان . لقد جعلوا مع الله إنسانًا قديمًا وجعلوا الله إنسانا حديثًا ، وجعلوا المسيحَ ابنَ الله لم يَزَلْ ،

وابنَ الانسان فيما حَدَثَ ، وهذه أمورٌ متناقضة ، وحجج داحضة . وأقاويل فاحشة .

فان قالوا : إنما نعبد المسيحَ لأنه رُفِع إلى السماء ، فليعبدوا الملائكةَ فإنهم فى السماء قبله ، وإدريسَ فقد رفعه الله وغيرَه ، وإن كانوا يعبدون المسيح لأنه لم يُخْلَقْ من ذكر ، فآدمُ وحواء لم يُخْلَقا من ذكر ولا أنثى ، ولم يَقَعا من غمّ الرحم وضِيق البطن وحال الصِّبا فيما وقع فيه المسيح .

وإن قالوا : إنما نعبد عيسى لأنه أحيا الموتى ، فما أحيا حزقيل أكثر ، وما كان من اليَسَع تلميذِ إلياس أعجب لأنه أحيا الموتى بعد مئين من السنين . وإن طلبتم ذلك فى سِيَر الملوك عند قصة اليسع أصبتموه إن شاء الله .

وإن كانوا إنما يعبدون المسيحَ من أجل الأسقام التى أبرأ العجائب والتى أرَى ، فعجائبُ موسى أعجب وآياته أعظم أين ما ذكرت لك من (عجائب) عيسى من عجائب موسى من انقلاب البحر له ، وسلوكِ الجيش معه . أم أين ذلك من حجرٍ يضرب به فيتفجرّ بعيون الماء ، ويحمله معه حيث شاء ؟ .

بل أين تلك وهذه وغير هذه من الآيات من حبس يُوشَعَ الشمسَ ثلاثَ ساعات وكلُّ ماصنع موسى وعيسى وغيرهما باذن الله وأمره وقدره وقضائه . فاتّقِ الله وكن من القائلين بالحق ، الموحّدين للرب ، ولا تقل على عيسى مالم يَقُل فانكم لاتجدونه قال لكم فى شيء من كتبكم : اعبدونى فانى ربكم . تعالى الله عما يقول الظالمون ، ويذهب إليه الجاحدون .

وإن أمير المؤمنين قد أحبّ أن ينصح لك فى أوْلَى دارَيْك بك وأهمّ شأنَيْك لك ، فدعاك إلى الاسلام وأمرك بالايمان الذى به تدخل الجنة وتنجو من النار ، فان قبلتَ فحَظَّك أصبتَ ، ونفسَك أحرزت ، ولك ما للمسلمين ، وعليك ما عليهم ، وإن رددتَ نصيحة أمير المؤمنين فيما فيه الحظُّ فى آخرتك ، فان أميرَ المؤمنين ينصَح لك فيما فيه الصلاحُ فى عاجلتك : من إعطاء الجزيةِ التى يحقِن الله بها دماءكم ويحرّم بها سباءكم ، ويجعلها قوَامًا لمَعَاشكم ، وصَلاحًا لبلادكم ، وتوفيراً لأموالكم ، وأمْناً لجنابكم ، وسعةً لسرْبكم ، وبركةً على فقرائكم ، وغِنًى لأهل الحاجة والفاقة والمَسْكَنَة منكم .

ولن يذكر أمير المؤمنين فى الجزية لكم من حلول الأمن فيكم وعموم العافية إياكم ، وأستقامة البركة عليكم . وكفّ أيدى المسلمين عنكم ، وبَسْطِها على الأعداء منكم شيئاً إلا وفى قليل ما كان من أشباه ذلك أيام تلك الفدية التى كان الله أجرى نعمتَها لكم على يده ، وفتَح بركتَها عليكم من قِبَله ، مايدلُّكم على صدق أمير المؤمنين فيما يذكر ، ويشهَدُ له على حقّه فيما يقول إن شاء الله . فقد تعلمون أن الله قد أدخل على كل طرَف من أطرافكم ، وصِنْف من أصنافكم بتلك الفدية أموراً عظيمةَ البركة ، وواسعةَ المنفعة فى أمور غير واحدة .

منها : أن قادةَ جنودكم وساسةَ حربكم كانوا بعد وقوع أمرها وأستحكام عقْدها فِراغًا لمحاربة أعدائكم ومناصبةِ من ناوأكم بين أن يستجموهم فى بلادهم وينزلوا عليهم فى ديارهم ، ولا يرهبون تعقُّبَ بَشَرٍ إن ساروا فى أرضهم ، ولا يتخوفون طِراداً إن أجتمعوا لقتالهم أن يقيموا فى خَفْضٍ ودَعة وأمْنٍ وَسعَة مع الأزواج والأولاد والعيال والأوطان والرباع والمَحال وهم اليوم يترقّبون الجيوشَ من كل شِعْبٍ ويتخوّفون الحتوف

فى كل وقت لا يهدأ لهم جأش ، ولا يسكن لهم فَزَع ، ولا ينامُ لهم ليل ، ولا يأمن فيهم حال قد قَطَعت الهمومُ دابَرهم، وأضمرت المخاوفُ جُنُوبَهم ، واستأصلت الجنودُ أموالهم .

ومنها : أن أهل الحِراثة وإخوان العمارة فى بلادك وأطراف أرضك كانوا سِراعا إلى عمارة أرضهم وإصلاح ما تحت أيديهم . فيما لا قِوامَ لهم ولا لمعاشهم إلا به : ولا بقاء لدينهم إلا معه . قد أمِنوا الجيوشَ ومَعَرَّتَها والجنودَ وبادرتها . وانتشروا للعمارة . وابتكروا فى الزراعة . فارقوا رءوسَ الجبال وإقحامَ الغياض ، وراحوا فى أواسط أوطانهم وظِلال مَحَالِّهم . يشقِّقون الأنهار، ويغرسون الأشجار، ويُفَجِّرون العيون . حتى نَمَت الأموال. وَاخضَرّت الحال، وأخصب الجناب، وأصبحوا اليوم عن الزراعة ممسكين ، وللحِراثة تاركين ، وبغيرها مشتغلين فى إصلاح آلات الحرب ، وإحراز العيال فى الحصون ورمِّ القِلاع للجلاء وتحريش الحصون للبلاء ، قد انتقلوا عن منابت البر وكرائم الأرض ، ومجارى المياه ، إلى أوشال الجبال . وأشجار الغِياض ، وبطون الأودية ، فليس يبلغُون من عمارة

بلادهم ولزوم أوطانهم (و) من تناول ثمارهم وقوام معاشهم مثلَ ما كانوا يبلغون ، ولا ينالون من خَفْض العيش وطِيب الأمن ولذة الدَّعة قريباً مما كانوا ينالون .

ومنها : أن إخوان التجارات ، وأصحاب الأموال وأهل الظِّلْفْ والحافر، كانوا يتناولون ما شارفهم من بلادنا وما قاربهم من أسواقنا ، فينفِّقون تجاراتهم ويُغلون بضائعهم ، فتعظم الأرباح وتضعف الأثمان ، وكانت الباعة من تجار المسلمين وغيرهم من الذميين ، يتناولونهم للبيع لهم ويتناولونهم للشراء منهم ، فعمّت البركة وسُهلت المنفعة ، حتى نالت الرعاء فى جبالها واقيالها والنساء فى غزولهن وعمل أيديهن فضلا عن غيرهن .

ومنها : أنك ومَنْ قِبَلك من ذوى العبادة والزهادة والتألُّه والنسك والنيات كنتم على عافية من أيام الرضا بالحرب ، وسلامةٍ من أوزار الحضّ على قتال الخوف ، قد نَجَوْتم من معصية المسيح فى الدنيا التى نهاكم عنها ، والأمور التى أمركم بها ، من نحو قوله : «مَنْ لَطَم خدّك الأيمن فأمكِنْه من

الأيسر، ومَن أنتزع قميصَك فأعطه كساءك ، ومن لَطَمك فاغفرْ له ، ومن شتمك فأعْرِض عنه » .

ومنها : أن من بأقاصى بلادك ونواحى حوزتك ، قد ذاقوا تلك الأيامَ من لذة الخفض ، ودعة الحال ، وحلاوة الأمن ، ورفاهِيَة العيش ، وسَعَةِ العافية من سِبَاء أزواجهم ، وهَيْض أولادهم ، وحطم معاشهم ، وأسر رجالهم ، وغنيمة بقرهم وغنمهم ، وإفساد شجرهم وثمارهم ، وإجلاء عن مساكنهم وأوطانهم ، مالم يكن لهم رأىٌ يعرِفه ، ولا ظنٌّ يبلُغه ، ولا طَمَعٌ يقَارِبه.ولا أملٌ يذهب إليه ، وما قد عرفت الخاصَّةُ من بطارقتكم ، والعامةُ من أهل ملتكم به ، من رأفتكم بهم ، ورحمتكم لهم ، وشفَقتِكم عليهم ، وأثَرَتِكم إياهم ، وبركةِ ولايتكم ملكهم، ومنفعةِ سياستكم أمرَهم. ماقد أزدادوا لكم به محبةً ، وفى بقائكم رغبةً ، ولأمركم طاعة ، وعلى ملككم شفقةً ، وفيما نابكم نصيحة مع ما قد ازددتم بذلك من الهيبة فى صدور الأعداء ، والشرف فى قلوب النظراء ، والعظم فى عيون الأمم ، حتى أقروا لكم بقوة عزائم العقول ، وفضل

سياسة الأمور ، وصحة تدبير الملك ، وصدق النية ولطف الحيلة التى جعلوا نسبة عمالكم بها ، ومحل رأيكم فيها على أنكم نظرتم لضعفائكم حتى قوُوا ، ولفقرائكم حتى استَغْنَوا ، ولقرا بكم حتى بينوا وحيوا وقووا المسلمين من أيام الحروب وأوزار القتال ، ومعصية المسيح عليه السلام ، ولأعدائكم الأبعدين وجيرتكم الأقربين ، حتى كنتم من فراغكم لهم ، واشغالكم من أمركم بها ما أوطأتموه لحر يبحر[1] القتل ، وذل الأسر وغلبة القهر، والإذعان والاستسلام ، وإما كفيتموهم بالصلح ، واستوثقتم منهم بالرهن .

فاذا ذكرت ما كان من هذا وأشباهه وأمثاله فى الفدية ، فاعلموا أن أمثاله وأضعافه مقيم معكم فى الجزية فلا يكونن لك رأىٌ غيرها ولا أمر سواها ، فلقد أكثر أمير المؤمنين العجب من أمركم . وأطال تقليب الفكرة فى بعضكم فظن أن إخراجكم من جميع ما كنتم فيه إلى خلافه مما أصبحتم عليه من انتظار وقعات الحروب ، وصولات الجنود وأكل الحدود ، وتوقع

(١) هكذا فى الأصل .

الجلاء والسباء والقتل ، والأسر والحصر شيئا اختدعكم الله عز وجل فيه عن أنفسكم وكيداً استدرككم به لما علم من قلوبكم .

إلا أن أعجب عذركم وأفظعه كان عند أمير المؤمنين إذ بلغه جرأتكم على الله عز وجل فى نقض عهده ، واستخفافكم بحقه فى خَفَر ذمته ، وتهاونكم بما كان منكم وأنتم تعلمون أن مواثيق العهود ونذور الأيمان الذى وضعه الله عز وجل حَرَمًا بين ظهرانَىْ خَلْقِه، وأمانًا أفاضه فى عباده، لتسكُنَ إليه نفوسُهم، وتطمئن به قلوبهم ، وليتعاملوا به فيما بينهم، ويقيم به من دنياهم ودينهم فما من ملك من الملوك ولا أمة من الأمم تبيحُ حمى الله عز وجل تهاونا به وجرأة عليه إلا أجرى الله عليهم دائرة من دول الأعداء ، وأنزل عليهم عذابا من السماء ، وقد رجا أمير المؤمنين أن يُجرىَ الله نقمته منكم بأيدى المسلمين بعد إذ كان أعتقد عهدكمَ ، وأخذ ميثاقكم بالأيمان المغلّظة والعهود المؤكدة التى قد اعتقدها فى رقابكم ، وحملها على ظهوركم ، فأشهدتم الله بها على أنفسكم ، وتسامعَ بها مَنْ حولكم ، وحكم بها

بطارقتكم وأساقفتكم ، فلا الله أتقيتم ، ولا من الناس أستحييتم نكثاً للعهد ، وبغضا للمسلمين ، وخَتْراً بالأمانة ، وإباحةً للحمى ، فتوقّعوا العقوبة ، وانتظروا الغيب ، فلقد وثق أمير المؤمنين أن من عذاب الله ما هو حالٌّ إن شاء الله بكم .

ومن أسباب ما يريد الله من الانتقام منكم ، ما أزمع أمير المؤمنين وعزم عليه ، وقذف الله فى قلبه : من الإرادة والنية والرغبة فى إيطاء الجيوش بلادكم ، واستباء المقاتلة أرضكم والتفرُّغ لكم من كل شغل ، والايثار لجهادكم على كل عمل ، حتى تؤمنوا بالله وأنتم طائعون أو كارهون ، وتؤدُّوا الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون ، فكونوا على عدة من الجزية ، ويقين من الانتجاع الذى لا طاقة لكم إن شاء الله به ، ولا صبر لكم باذن الله عليه ، فان جنود أمير المؤمنين فارغة كثيرة ، وخزائنه عامرة وافرة ، ونفسه سخية بالانفاق ، ويده مطلقة بالبذل ، والمسلمون نِشاط إليكم ، منقلبون عليكم قد عوّدهم الله فى لقائكم عادة يرجون انتظار مثلها ، وأبلاهم فى قتالكم بلاء من أمثالها ، إن شاء الله .

وكتاب أمير المؤمنين نذيره بين يدى جنوده ، ومُقدِّمه إن شاء الله من جيوشه ، إلا أن تؤدُّوا الجزية عن التى دعاك أميرالمؤمنين إليها ، وحداك ومن قبلك عليها رحمة للضعفاء الذين لاترحمهم ، وتوجعاً للمساكين مما لاتوجع منه لهم من الجلاء والسباء والقتل والأسر والقهر ، وقساوة من قلوبكم وأثرة لأنفسكم ، واعتصاما بخواصكم ، واجلاء لعوامكم الضعفاء الفقراء المساكين الذين لاتمنعونهم بقوة ، ولا تدفعون عنهم بحيلة ، ولا تراقبون فى الرحمة لهم والتعطُّف عليهم . أدب المسيح إياكم ، وقوله فى الكتاب لكم : «طوبى للذين يرحمون الناس ، فان أولئك أصفياء الله ونور بنى آدم» .

وأيم الله لو يعلم مَن قِبَلك من المساكين والزراعين والفقراء والضعفاء والعَمَلة بأيديهم مالهم عند أمير المؤمنين لتحدّروا عليه وأقبلوا إليه من إيوائهم ، وانزالهم الأرض الواسعة ، وإمكانهم من مسايل المياه السائحة ، والعدل عليهم بما لاتبلغه أنت ولا تقاربه رفقاً بهم ونظراً لهم وإحسانا إليهم

مع تخليته إياهم وأديانَهم لا يُكرههم على خلافها ولا يجبرهم على غيرها لاختاروا قرب أمير المؤمنين على قربك ، وجواره على جوارك ، ولأ نقذوا أنفسهم وأموالهم وأولادهم وأزواجهم وعيالاتهم مما يحل بهم فى كل عام ويلقون من كل غزاة ، فاتق الله واَقبل ما عُرض عليك من الجزية ، ولا يمنعنك ما فيه الحظ لك ولأهل مملكتك . ونحن على رجاء أن الله لا يؤخر ذلك منكم . ويدفعه عنكم . إلا ليجعله على يد أهل بيت النبوة والرحمة ، ولأهل الوراثة فيهم للكتاب والحكمة الذين لا يدخل عليكم فى الإذعان لهم وأداء الجزية إليهم حميةٌ ولا نقيصة ولا عار . والذين يَفُون لكم بما يعقدون ويتبعون فعلهم ما يقولون .

ثم أمير المؤمنين بخاصة لما جعل الله عليه رأيه وفيه نظرة من البر والرحمة والاقساط والوفاء بالعقود والعهود والشروط . نظراً لدينه وخوفا من ربه . ولما قذف الله فى قلبه وقلوب المسلمين من المحبة والطاعة والأثرة ، ولما جعلهم الله عليه من اجتماع الكلمة ، واتفاق الأفئدة ، والنصائح فى

السر والعلانية ، وما عوّده الله ممن نصب له بمجاذبة ورماه بمكايدة ، وعراه بحيلة : من النصر العزيز ، والفتح القريب ، والظفر المبين ، فابذُلْ من الجزية ماشئت ، وسمّ منها ماهوِيت ، واعلم أن أمير المؤمنين ليس يحدوك عليها الحاجة به إليها ولا للمسلمين ، ولكن طاعة لربه وأثرة لحقه ، وليجعلها سبباً لما يريد أن يجرى فيما بينه وبينكم ، وإنه إنما كان قبول المهدى ـ رحمه الله ـ الفدية منكم بطلبة أمير المؤمنين كانت إليه ، والحاجة كانت فيها عليه ، ولم يكن من رغبة فيها ، ولا حاجة إليها ، ولا استعظام لها ، ولقد كان يعطى فى المجلس الواحد مراراً أمثالها ، ولكن ذلك كان رأى أمير المؤمنين يومئذ فيكم . فأما اليوم إذا استبان له غدرُكم ونقضكم ونكثكم واستخفافكم بدينكم وجرأتكم على ربكم ، فليس بين أمير المؤمنين وبينكم إلا الاسلام أو الحرب المجلية إن شاء الله ، ولا حول بأمير المؤمنين ولا قوة إلا بالله ، عليه يتوكل ، وبه يثق ، وإياه يستعين ، والسلام على من اتبع الهدى .

الخاتمــــة

تمت رسالة قدوة المحققين أبى الربيع محمد بن الليث ، وقد أدى الأمانة ووفى للإسلام حقه . مع الدقة فى البحث . والمتانة فى التدليل . والسهوله فى الإقناع والقوة فى الحجة . أحسن الله جزاءه وطيب ثراه . ونفع المسلمين بعلمه وعمله . وهدى أولئك الذين طمس الله على قلوبهم إلى الحق وردّ كيد الخائنين فى نحورهم وكفى الإسلام شر مكرهم

أيها المسلمون اعملوا غير هيابين . واسعوا غير وجلين . لإعلاء شأن دينكم . دين الفطرة والهدى . دين المدنية والثقافة . دين العلم والمكارم ، واخلعوا عنكم رداء الكسل . حتى يصلح الله حالنا . ويجمع شملنا ويوحد قوتنا . ويرفع علمنا . ويسدد خطواتنا ، انه سميع قريب مجيب « ربنا إننا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين » ربنا « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين» آمين .

اسعد لطفى حسن

بحمد الله تعالى تم طبع رسالة « أبي الربيع محمد بن الليث إلى قسطنطين ملك الروم » مصححاً بمعرفتى .

أحمد سعد على

من علماء الأزهر الشريف ورئيس التصحيح

(القاهرة فى يوم الخميس غرة رجب الفرد سنة ١٣٥٥ هـ — ١٧ سبتمبر سنة ١٩٣٦ م)

ملاحظ المطبعة

محمد أمين عمران

مدير المطبعة

رستم مصطفى الحلبي